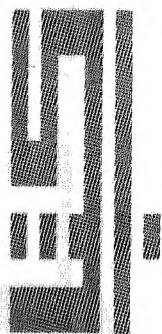
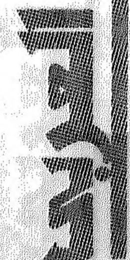
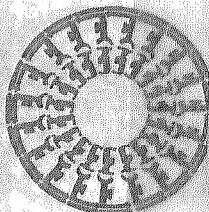


د. فخري الدباغ



السلوك الإنساني

الحقيقة والخيال!

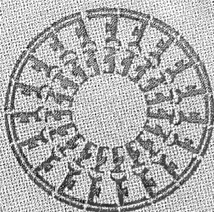


الكتاب الثاني عشر
١٥ يوليو ١٩٨٦م

اهداءات ٢٠٠٢

د/ ابراهيم مصطفى ابراهيم
كلية الاداب -دمنهور

بسم الله الرحمن الرحيم



كتاب العربي

✻ مرآة العقل العربي ✻

رئيس التحرير :

الدكتور محمد الرميحي

هذه السلسلة :

- تصدر عن مجلة العربي.
- مؤقتاً فصلياً .
- تقدم مجموعة من المقالات والموضوعات لكاتب واحد أو موضوعاً واحداً تتناوله عدة أقلام .

السعر

الكويت ٢٥٠ فلسا ، العراق ٢٥٠ فلسا ، السعودية ٥ ريالات ، الأردن ٢٥٠ فلسا ، سوريا ٣ ليرات ، لبنان ٣ ليرات ، مصر ٢٥٠ مليما ، السودان ٢٥٠ مليما ، المغرب ٥ دراهم ، قطر ٥ ريالات ، الامارات ٥ دراهم ، سلطنة عمان ١/٢ ريال ، اليمن الشمالي ٣ ريالات يمني(ش) ، اليمن الجنوبي ٣٠٠ فلس يمني (ج) ، ليبيا ٣٥٠ درهما ، تونس ٤٠٠ مليم ، الجزائر ٤ دنانير ، البحرين ٣٠٠ فلس ، بريطانيا ١ جنيه ، فرنسا ١٥ فرنكا ، اوروبا ٢ دولار / أو جنيه استرليني واحد ، أمريكا ٢ دولار .

د. فخري الدباغ

السلوك الإنساني

الحقيقة و الخيال !

● كتاب العربي ●
● سلسلة فصلية تصدرها مجلة العربي ●

الكتاب الثاني عشر
١٥ يوليو ١٩٨٦م

تقديم

بقلم : الدكتور محمد الرميحي

إعرف نفسك !

لعل الحكمة القديمة الحاثة على معرفة النفس كمدخل أساسي لمعرفة أحوال الانسان وبيئته الاجتماعية ما تزال لها مصداقيتها المؤثرة .

فلا أعرف علما من العلوم ، يختلف فيه الناس ، وتزداد نسبة الخطأ في فهمهم له وتباين موضوعاته لديهم كموضوعات علم النفس ، زد على ذلك تنوعه وتشعبه في موضوعات متعددة .

لقد اختلط الفهم على الناس في موضوعات هذا العلم بين أمراض نفسية وأمراض عقلية ، وبين علم نفس اجتماعي وعلم نفس (اكلينكي) وتربوي وحربي وصناعي . . الخ . بل اختلط كل ذلك بدراسة سمات الشخصية من ذكاء وابداع وعبقرية وما ناقض ذلك من صفات .

رغم هذا الاختلاط على جمهور المثقفين ، فلا زالت موضوعات علم النفس المختلفة ومنذ زمن طويل تجذب القاريء لارتباطها بنفسه وبيئته الاجتماعية .

ومن دراسة تاريخ هذا العلم وبذوره الأولية نكتشف كم نحن محظوظون في هذا العصر لاقترابنا من فهم ذواتنا بشكل أفضل مما فهم به أجدادنا الأولون ذواتهم .

فقد عولجت الأمراض النفسية في عصور التخلف بطريقة تتفق والأسباب التي اعتُقد بأنها تولد المرض ، فتم استخدام مجموعة من الأساليب التي تبدو غريبة وعجيبة علينا الآن مثل القيام ببعض الصلوات وصب المياه المقدسة واستعمال بصاق الكهنة أو فضلاتهم لعلاج أولئك المساكين الذين أصيبوا بنوع أو آخر من الأمراض النفسية! وعندما ارتقى أسلوب العلاج عن ذلك ، ظُن في تلك العصور المتقدمة أن (الشيطان) هو الذي يسكن أجسام هؤلاء المرضى فاستخدمت أقذع العبارات في الشتم بقصد الاساءة الى (كبرياء) الشيطان كي يترك جسم المريض وينأى عنه ، وتطور الأمر بهذا الاتجاه الى أن يعاقب الشيطان المستوطن لجسم المريض بالضرب - ضرب المريض - أو غمره في الماء البارد أو المغلي . . الخ . لقد اتخذت كل هذه الخطوات حتى يتحول جسم المريض « منزلا مزعجا » لذلك الشيطان فيتركه ويهرب !

ولعل بقايا هذا النوع من الاعتقادات ما تزال سارية بأشكال مختلفة لدى بعض الفئات في مجتمعاتنا القريبة الى الجهل .

هذه الأفكار غير العلمية المرتبطة بالفهم الخاطىء لعلم النفس وتفرعاته ، هي التي مازالت تثير المخاوف الباطنية عند بعض الأفراد في مواجهة كل أشكال الاضطرابات النفسية . ومازالت أسر كثيرة تخفي أبناءها أو

بناتها العاثرى الحظ الذين أصيبوا بنوع أو آخر من الاضطرابات النفسية وكأن إصابتهم عار اجتماعي ، فتوصد عليهم الأبواب لتحجبهم عن الزائرين والغرباء .

وفي بعض تراثنا العربي الاسلامي معالجات نفسية لا تخلو من طرافة ، كما نُقل عن ابن سينا عندما مرض واحد من أبناء الأمراء ، فنودي على ابن سينا لعلاجه ، ودخل الطبيب على المريض وبعد فحصه لم يجد في ظاهر جسمه علة ، فأمسك نبضه وراح يردد على مسامعه أسماء الأحياء في المدينة ، وعندما وصل الى اسم حي معين ، فان نبض المريض ازدادت ضرباته ونبضاته ، وأعاد ابن سينا ترديد أسماء بيوت الحي على المريض ، الى أن زاد نبضه عند ذكر اسم بيت أسرة بعينها ، عندها أخذ الطبيب الحاذق يردد أسماء من يسكنون ذلك البيت حتى وصل الى اسم معين من فتيات الاسرة . . . عندها أخذ نبض المريض يدق بسرعة وبزيادة ملحوظة ، صاح الطبيب عندها : زوجوا ابنكم الشاب من تلك الفتاة فهي علاجه !

على بساطة هذه القصة وعوامل الشك العلمى فيها الا أنها تقودنا الى حقيقة مفادها أن الأقدمين قد عرفوا ـ بشيء من الدقة ـ أن ما يبدو على أنه أعراض لمرض عضوى ليس بالضرورة أن تكون أسبابها أيضا عضوية ، الا أن هذه الحقيقة اذا واكبها نقص في المعرفة العلمية وضعف في الاطلاع والفهم ، فقد تقود الانسان الى الوقوع في شرك الشعوذة والدجل ومن ثم ينحرف العلاج عن جادة الصواب .

لقد أصبح فهم علم النفس ودراسته برؤية صحيحة أمرا مجديا ليس للأفراد في علاقاتهم الأسرية فقط ، ولكن أيضا للعاملين الاجتماعيين في قطاعات كثيرة في المجتمع ، كالمشرفين في السجون والمدارس والمستشفيات الى جانب القائمين على مؤسسات الصحة النفسية وكذلك الآباء والأمهات .

وكلما تعقد المجتمع كلما اشتدت حاجتنا الى فهم أنفسنا فهما صحيحا على شكل أوسع وأعمق . فالمجتمعات الحديثة متقدمة كانت أو نامية تزخر بالأسباب والدوافع العديدة للاضطراب النفسي ، مثل الضغوط الاجتماعية والمعيشية وتغير القيم السريع وتناقضها والتمزق والضياع ، كل ذلك يدفع الكثيرين الى الاستجابة لهذه العوامل استجابة غير طبيعية ، فيتردون في هوة المرض النفسي .

وحتى منجزات الحضارة الحديثة من التطور العلمي والتقني والاختراعات الجديدة تترك آلافا من البشر نهبا للبطالة ، كما أن المشاكل الاجتماعية والشخصية والسياسية تخلف من الآلام والأزمات ما يجعل الناس تبحث عن منافذ للخروج منها ، وقد يجدون الأبواب موصدة فيقعون في أوهام الإدمان والمخدرات وتجرفهم مخاطرها حتى يصل الأمر إلى أن تتحطم الأسر ، كما أن معاناة الناشئة من مشاعر الضياع والحرمان ورفضهم لواقعهم المجحف يقودهم إلى دهاليز الأمراض النفسية المختلفة .

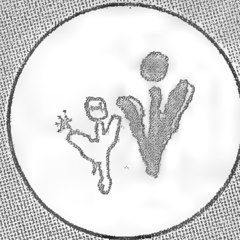
هذه الاستجابات الشاذة غير السوية أصبحت تعيش معنا كل يوم ، فلا يقرأ أحد منا جريدته اليومية أو مجلته الاسبوعية حتى يطالعه من بين سطورها خبر عن حالة قتل قد تكون لاقرب الاقربين للقاتل أو انتحار أو شذوذ جنسي أو تعاطي مخدرات أو بيعها . . . الخ . وهذه الحوادث الشاذة لا تقل أو تضعف بل إنها تستفحل وتزداد .

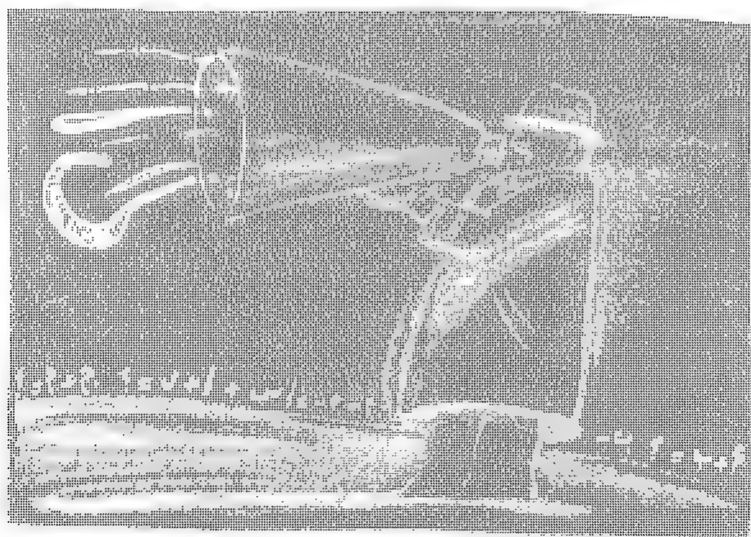
هذا القلق الاجتماعي الذي يمنع الأفراد من التكيف السليم مع بيئتهم ويبعدهم عن التفكير السليم في حل مشكلاتهم مما يورطهم في ممارسة حلول خاطئة تؤدي بدورها الى مشكلات جديدة حتى تمتد سلسلة هذه المشكلات الاجتماعية المتراكمة المتشابكة لتوقع ضحيتها أو ضحاياها آخر الأمر في حبائل المرض النفسي المدمر . لذلك فان الحياة الحديثة بكل ما تفرضه علينا من ضغوط وأعباء تسلمنا بطريقة أو بأخرى الى نوع من أنواع التكيف غير السوى ، ولكي نكتشف أسباب ذلك فإن علينا أن نكتشف أنفسنا أولا ، وهذا ما حاوله الكاتب في هذا الكتاب الذي نقدمه الى القاريء كي نضعه في دائرة مضيئة يتحسس فيها نطاق نفسه وأغوارها ، وما يموج بها من مشاعر ونوازع ، وما يمكن أن يقدم لها من دواعي الاستقرار والأمن ، حتى يكون على بينة من النفس الانسانية بعامة ، ونفسه التي بين جنبيه بخاصة .

محمد الرميحي

الفصلُ الأوّلُ

بَيْنَ الحِسِّ والسّلوكْ :





الحِسّ العَام وَهْم أمْ حَقيقَة ؟

رأى أعرابي ثعلبا يبول على رأس صنم كان يصحبه في أسفاره لغرض التعبد ، فما كان منه الا أن قذف به بعيدا وهو يقول :

أربٌ يبول الثعلبان برأسه
لقد ذل من بالت عليه الثعالب

وهي حكاية تحمل أكثر من مغزى . . أهمها ان عقل الاعرابي على جهالته ووثنيته أدرك أن قطعة الحجر الآلهة حقيرة وضيعة لأن حيوانا بريا استطاع أن يعلو عليها ويستهين بها كأهون ما تكون ، وهذا دليل على وجود ما يدعي بالحس العام لدى ذلك الاعرابي .

والحس العام اصطلاح غربي معاصر عرَّفه الجميع منذ غابر الأزمان بكلمات واصطلاحات أخرى مشابهة ومقاربة تدل على : استخدام العقل والفطنة في حل المشاكل وتسيير أمور الحياة ، والحس العام يعني أيضا : « الحكمة في ادارة الأمور » ويعني كذلك : « استخدام الفكر والخبرة لفك العقد والمعضلات الآنية . . » ويعني أيضا : « كيفية الربط وايجاد العلاقات المختلفة لتجاوز الأزمات والمشاكل » ، وقد تعني أيضا : « الاسلوب المنطقي المعقول في استجابة الانسان لحوافز الحياة ومؤشراتها » .

ـ العربي ـ العدد ٢٤٤ مارس ـ آذار ١٩٧٩ م



الحس العام . . غير عام :

وقد يبدو لأول وهلة أن من المفروض أو البداهة أن يمتلك كل انسان حسا عاما يلجأ اليه ويستعمله في تسيير أموره أو الابحار بسفينة ذاته واتباعه في المحيط والمجتمع . . لكن الوقائع والتجارب تؤكد للمتتبع أنه لو لجأ الناس الى حسهم العام فعلا واستعانوا به ، لهبطت حدة المشاكل والاحتكاكات والمصادمات الى مستوى يثلج الصدور . . مما يدل على أن الحس العام قليل الاستعمال . ولا نجازف بالقول إنه نادر الوجود أو هو موجود فعلا مع ندرة اللجوء اليه .

وفي هذا قال أحد الحكماء الساخرين : ان الحس العام ، غير عام ، ونادر الوجود .

وشاهدنا على صحة هذا الحكم ما نلمسه من مصاعب تنجم من جراء انتفاء الحس العام : كمجرد الروتين وتزمته . . والتمسك بحرفيات القوانين والتعليمات . فالاداري الممتاز والقاضي الناجح هو الذي يمتلك من المرونة وسعة العقل ورحابة الصدر ما يكفي لتكوين حس عام يطبق القوانين والأنظمة والتعليمات لا بحرفياتها بل بمدلولاتها . . لا بنصوصها بل بروحيتها دون المساس بها وبقوتها وحرمتها وتأثيرها .

الحس العام . . والذكاء :

والحس العام لا يعتمد على الذكاء الصرف ، أو بالاحرى إن وجود الذكاء ليس شرطا أساسيا لوجود الحس العام ، لأن الذكاء أحيانا يفتقر الى الحكمة ، والفرق بينهما شاسع .

والذكاء أنواع : ذكاء عام وذكاء خاص والذكاء العام هو المجموع والمحصلة للقابليات العقلية الفطرية للانسان (عملية ولغوية . .) أما الذكاء الخاص فيدخل معه الذكاء العام ويزيد عليه بميزة أخرى هي الاختصاص والامتياز فيه ، مثل وجود قابلية خاصة في فن الموسيقى . . أو الغناء أو الرياضيات . أو الكلام أو المهارة اليدوية الميكانيكية . . أو الذاكرة أو الحفظ . الخ .

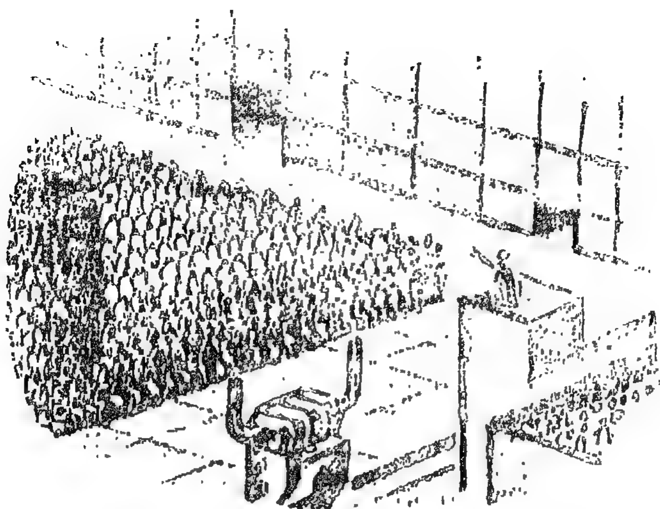
وما نود التأكيد عليه أننا قد نجد شخصا ذكيا جدا أو عبقريا في الفيزياء وذا ملكة عقلية وذكاء عام فوق المتوسط ، ومع ذلك فانه قد لاينجح في حياته الأسرية أو في حل مشاكله الآنية أو أموره الاجتماعية ، أي تعوزه تلك الحكمة والخبرة الحيوية العملية . فالحس العام إذن ليس ذكاء صرفا بل قابلية على ربط الأشياء برباط جدلي واستنباط الحلول المناسبة والأجوبة الشافية لها . .

وليس ثقافة :

كذلك فان الحس العام لايعتمد على التعلم في المدرسة والجامعة لأن حكماء البشر المشهورين كانت مدرستهم هي الحياة . . وكانت كتبهم وأقلامهم هي دقة ملاحظاتهم ورهافة أحاسيسهم .

« والعارفة » بين عشائر البدو العربية هم خير مثال على عقلاء الناس الذين يتملكون ذلك الحس العام الذي يلمسه الآخرون فيستعينون بهم لحل نزاعاتهم ومشاكلهم ، وحكماء العرب في التاريخ هم الذين امتلكوا قدرا كبيرا من الحس العام جعلهم دائمي الصيت وخالدين في تاريخ أمتهم مثل أكثم بن صيفي .

اذن ، فالحس العام قد يستند الى المعرفة والثقافة ولكنه ليس المعرفة والثقافة حصرا ، وليس شهادة البكالوريوس أو الماجستير أو الدكتوراه ، لأنها شهادات في حقل معين من علوم الحياة وليست شهادات خبرة في الحياة أو فطنة في مجابهة الصعاب .



الحمـق :

واذا كان الشيء لايعرف الا بضده ، فان الحمق هو أقرب الاضداد للحس العام وأيسرها فالحمق علة طبيعية ، والأخرق مندفع وعنيد وسطحي ومكابر ، وكلها صفات تتنافى مع الحس العام .

يقول الشاعر :

لـكـل داء دواء يُسـتـطبُّ بـه
الا الحـمـاقـة أعـيـت مـن يـداويـهـا .

أما المرض العقلي الذي هو أشد درجات الحمق الاعتيادي فهو السايكوباثية (السلوك اللااجتماعي) وهو من الأمراض العقلية المهمة التي تعتبر الى الآن من معضلات الطب النفسي والطب الشرعي ، ومن آفات المجتمع الخطيرة . وهو مرض يصيب نسبة معينة من الناس لايعرف له سبب معين ثابت الى الآن ، ولم يستقر تصنيفه في أحد من الأبواب وفصول الأمراض النفسية . وله خصائص كثيرة معروفة لدى علماء النفس أهمها :

- انهم يتمتعون بذكاء طبيعي أو فوق المتوسط .
- أنهم يفتقدون الحكمة والتجربة .
- انهم لايتعلمون من تجاربهم السابقة فيظلوا على ما هم عليه .
- لا يروعهم العقاب ، ولا تشجعهم المكافأة والمديح ، فهم جامدون على وضعهم دون تحسن ، بل ربما يتراجعون الى تأخر وتدهور .

وهذه الصفات تتلخص بفقدان الحس العام . والسايكوباثية مرض بالطبع ولكنه يصور لنا أشد حالات انعدام الحس العام ، وهو سبب انحراف المصابين بالمرض نحو الشذوذ الجنسي والتشرد والاجرام وكذلك الادمان على المخدرات . فكل سايكوباث هو أحمق أخرق .. ولكن ليس كل أحمق سايكوباث . والحمقى كثيرون والسايكوباث أقلية .

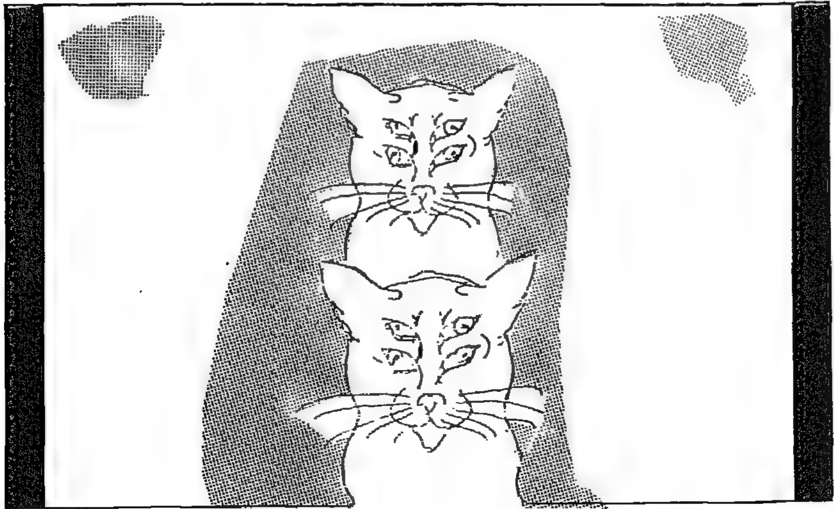
هل يمكن رعايته ؟

يتبين مما تقدم أن الحس العام هو دون جدال موهبة عقلية تستند الى استعداد وقابلية فطرية مضافا اليها ذكاء مناسب وخبرة كافية وثقافة شافية تمتزج جميعها بمقادير ونسب ومعادلات متناسقة ومتوازية لتجعل المرء انسانا يخوض غمار الحياة ، ومأزقها بذهن جامع .. لامع .. قدير .

ولكن ، هل يمكن للتربية وعلم النفس والاجتماع أن تؤثر في هذه العوامل وتتدخل لتنمية الحس العام النادر وتعميمه ؟ . سؤال وجيه يطرحه المربون والمصلحون .

وللاجابة عنه نقول : نعم ، يمكن ذلك باتباع أساليب التوعية المستمرة للنشء والجيل الجديد .. والحث على مكارم الاخلاق وضرب الأمثال للناس وطلبة المدارس والجامعات .. والاستعانة بالتاريخ والتراث .. بالماضي والحاضر لادخال المثل والنماذج السليمة في السلوك وممارسة الرياضة العقلية في التعليم الثانوي والجامعي ، وهو التعليم الذي لايعتمد على الاملاء والنسخ ، بل على البحث والتقصي والمناقشة والتحليل ، لأن المناقشة والحوار والتحليل تجلو الصدأ عن العقول وتكسر القيود والسدود .. وتتيح للانسان الكشف عن العلاقات المنطقية بين الأشياء والمفاهيم .. وربط النتائج بالأسباب .. والظواهر بالبواطن .. والنظرة الشمولية الى الامور .

وبذلك يصبح الحس العام ملكة عقلية ليست صعبة المنال بل أشبه بعـادة اجتماعية سائدة ، وأسلوبا في التعامل مع الحياة . . من أجل حياة أهدأ وأجمل وأعقل .



زرقاء اليمامة وظاهرة الاحساس الخارق !



اشتهرت « زرقاء اليمامة » من عشيرة جديس في الجاهلية بحدة بصرها وقيل انها كانت تستطيع الرؤية بوضوح على بعد مسيرة ثلاثة ايام . وقيل انها رأت مرة علائم غزو متجهة نحو قبيلتها . . . فلما حذرتهم سخروا منها ولم يصدقوها ـ ولم يكونوا على علم او يقينٍ بمقدرتها ـ. ثم وقعت الواقعة وجاءهم الغزو . . « ولات ساعة مندم . . » .

هذه الحكاية يسمعها أو يقرأها انسان القرن العشرين فيبتسم اذا شعر بمبالغتها ، أو يهملها اذا اعتبرها اسطورة خرافية ، الا انها في نظر علم نفس الخوارق تعتبر واقعة محتملة ودليلا ايجابيا لما يتضمنه من مجالات البحث ، فما هو علم نفس الخوارق ؟ . . ومتى بدأ . . . ؟ » وأين موقعه من العلوم الانسانية والسلوكية الاخرى ؟ . . .

ـ العربي ـ العدد ٢٠٨ مارس ـ آذار ١٩٧٦ م

علم نفس الخوارق :

ولحكاية زرقاء اليمامة مثات الوقائع المشابهة حدثت على مر القرون ، فقد وجد اناس يستطيعون قراءة افكار غيرهم او رؤية المحتويات وأنواع المواد أو الحوادث الجارية والموجودة على بعد كبير منهم . . او التنبؤ بحوادث لم تقع بعد . . وهكذا ، وقد جاء ذكر مثل هذه القابليات في كتابات الفيلسوف (ديموقريطيس) منذ عهد الحضارة الاغريقية .

وروى احد رؤساء الجامعات المعروفين في امريكا في هذا القرن قصة حقيقية وهي انه كان عليه اداء مهمة صعبة وعسيرة وهي الذهاب الى دارزوجين من اصدقائه الاعزاء ليخبرهما بأن ابنهما قد توفى فجأة في الصين ، فلما سمع الزوج النبأ الفاجع التفت الى زوجته بهدوء وهو يقول :

« كنت على حق يا زوجتي . . . . » وتبين ان الزوجة كانت قد اخبرت زوجها قبل أيام بأنها متأكدة ان ابنهما قد توفى .

وسادت في ريف انكلترة وايرلندة لفترة من الزمن قضية علاج بعض الماشية المصابة باورام جلدية تدعى (الثؤلول) من قبل اشخاص معينين يعالجونها دون عقاقير أو لمس بل بالارادة والعزائم .

هذه الامثلة ، وغيرها كثير ، لم تمر على بعض الباحثين مرورا عابرا بل دفعتهم الى دراستها وتمحيصها وتحليلها بالطرق العلمية وبنظم المنهج العلمي الحديث وأصوله ، ولما كانت تلك الدراسات تتعلق بالسلوك البشرى وبالعقل والنفس (والروح) فانها اصبحت اقرب المواضيع الى علم النفس بل محاذية له مع بعض الاختلاف ، لذلك اطلق عليها اصطلاح ، « علم نفس الخوارق » وهو ذلك النوع من المعرفة الذى يبحث في الظواهر الحسية الغريبة . واداة التصدير في أول الكلمة Para تعني باليونانية « محاذى » « أو مجاور » « او جنيب » فعلم النفس الجنيب يعنى العلم الذى يدرس الظواهر السلوكية التي تقع خارج نطاق علم النفس الاعتيادى او التي تتميز عن الظواهر الاعتيادية وتشذ عنها ، وهكذا اخترنا اصطلاح علم نفس الخوارق للدلالة عليها .

والظواهر الحسية الخارقة التي هي موضوع علم النفس هذا سميت كذلك بالقابليات الحسية الخارقة للمألوف .



شيء من التاريخ

قلنا ان الحكايات والوقائع المتفرقة التي كانت تثير الدهشة والاستغراب وربما الوجل والحيرة ظلت مستمرة منذ عشرات القرون ، وكانت جزءا من حكايات الاساطير والخرافات أو من الأدب الديني أو من معجزات الاولياء والقديسين ولم يتمكن احد من تفسيرها . . . بل كان الاهون على بعض العلماء مهاجمتها أو الطعن فيها دون دليل . . .

الا ان بعض علماء النفس والفلاسفة نظروا الى تلك الحوادث بجد واهتمام اذ رأوا في بعضها حقائق دامغة لا يمكن تجاهلها فآثروا سلوك الدرب الوعر . . . . . وبدأوا يدرسون بصمت ظواهر الاحساس الخارق منذ اواخر القرن التاسع عشر . وشرع البروفسور (وليم باريت) استاذ الفيزياء في كلية العلوم الملكية في دبلن عام ١٨٧٦م يعلن عن تجاربه حول قضايا تواصل الافكار وقراءتها ثم تأسست في لندن عام ١٨٨٢ جمعية ابحاث خوارق الاحساس وقد استخدم اصطلاح **Psychic** للدلالة على الظواهر غير المادية (او الروحية) تمييزا لها عن الظواهر النفسية وقد لاقى (باريت) وغيره من الداعين المتحمسين لتلك الدراسات كثيرا من الهجوم والنقد من قبل زملائهم الاخرين ، لكن الابحاث استمرت على نطاق شخصي وعلى مستوى الجمعيات الخاصة والاهلية ، الا انه في عام ١٩٣٠م دخلت جامعة (ديوك) في ولاية (كارولينا الشمالية) الامريكية مغامرة علمية جريئة عندما فتحت شعبة لعلم نفس الخوارق برئاسة الاستاذ الدكتور (راين) الذي بدأ ينشر ابحاثه العلمية تباعا منذ عام ١٩٣٤ ، وصدرت بعدئذ مجلات علمية حول الموضوع . . . . وامتدت الشعب والاقسام الى جامعات كبرى كجامعة كولوراد ونيويورك وهارفرد ولندن وكمبردج واكسفورد ، وفي نيوزلندة والسويد وهولندة وفرنسا ويوغسلافيا واليونان ، ومن العلماء الذين اشتهروا في هذا المجال : راين ، ويست ، مورفي ، ثاوليس ميريل ، وكثيرون غيرهم .

وكان انتقال موضوع خوارق الاحساس الى الجامعات العلمية وتحت اشراف اساتذة امناء طفرة كبيرة في ازالة الالتباس والشك الذي يساور كل مثقف متفحص وكانت الخطوة التالية هي الاقدام دون تردد على منح الشهادات

العلمية من ماجستير ودكتوراه في هذا الموضوع من قبل جامعات امريكا واكسفورد ولندن وكمبردج .

ما هي خوارق الاحساس ؟

ترى ماذا نقصد بخوارق الاحساس ؟ ان العلم الحديث توصل الى الكشف عن الاصناف التالية :

١ ـ التخاطر ، او تواصل الافكار وهي ان يتمكن شخص وهو في مكانه من معرفة ما يجول بأفكار شخص آخر لا يراه ولا يمتلك واسطة للاتصال به وعلى بعد امتار أو اميال منه .

٢ ـ التجلي ، أو الاستبصار وهي القدرة على رؤية الاشياء والناس والحوادث خارج نطاق البصر ، اى ما وراء الحواجز والجدران أو على بعد مئات الاميال وربما على بعد نصف الكرة الارضية ، وهنا تغدو قصة زرقاء اليمامة شيئا محتملا جدا أو منطقيا لانها ربما كانت ترى الاشياء بقوة الاستبصار وليس من خلال العين واعصاب الشبكية وبالاضواء والظلال التي ينقلها الجهاز العصبي ، بل ببعض القوى الحسية الاخرى ، ومثال آخر على ذلك :

كانت طفلة عمرها عشر سنوات تقلب اوراق كتابها المدرسي في الهندسة وهي تسير في حقل القرية عندما شعرت بأن الدنيا غامت حولها ، ثم رأت بوضوح ان امها ممدودة شبه ميتة في غرفة مهجورة في دارهم وبجانبها على الارض منديل صغير مطرز الحافة ، واسرعت الطفلة رأسا الى طبيب القرية قبل التأكد من صحة الرؤية ، واقنعت الطبيب بالقدوم معها الى الدار ، وعند باب الدار رآها والدها فاندهش وتساءل : ترى من يكون المريض ؟ لكن الطفلة هرولت الى الغرفة المنعزلة وهناك رأى الجميع ان امها مغمى عليها فعلا وبجانبها المنديل ، واكد الطبيب انها مصابة بنوبة قلبية ولو تأخر في اسعافها تلك الساعة لماتت .

وروى الفيلسوف (كنط) ان صديقه سويد نبرج) كان في مدينة (جونتبرج) عام ١٧٥٩م وشعر انه يرى حريقا قد حدث في مدينة (استوكهولم) في السويد على بعد ٣٠٠ ميل منه ووصف الحريق للسلطات

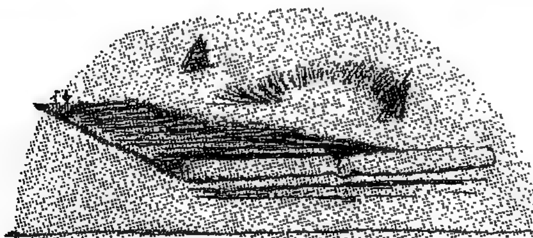
وسمى لهم اسم صاحب الدار التي احترقت حتى اطفئت النار ، وبعد ايام وصل البريد الملكي واكد حقيقة الحادث بالضبط .

٣ ـ التنبؤ أو الادراك المسبق وهي قابلية الفرد على استباق الحوادث وتوقع ما سيحدث قبل وقوعه بساعات او ايام أو أشهر ، واكثر ما يتضح ذلك في الاحلام ، ولا يزال الاعتقاد سائدا بين العامة ان الاحلام تتضمن خاصية الاخبار والتنبؤ بالمستقبل على الرغم من ان علم النفس الحديث وخاصة نظرية فرويد ، لا تعتبر الاحلام الا مجرد افكار وخواطر ورغبات مكبوتة تظهر اثناء النوم بصورة مموهة ورمزية للتعبير عن اشياء لا تتاح لها فرص التعبير في الواقع .

والامثلة على التنبؤ كثيرة نذكر منها الواقعة التي سجلها العالم اليوناني الدكتور (تاناجراس) وهي : ان طفلا رأى شبحا ابيض كلمه وحذره انه سيموت بحادثة صدم بسيارة . فهرول الطفل خائفا ليعيش بين الجدران في دار جدته ، وفي يوم من الأيام خرج ببساطة ليلعب في الطريق عندما اقتربت منه سيارة ، فسارع الطفل الى الرصيف والتصق بالحائط بمنتهى الحذر ، لكن السيارة صعدت الرصيف واتجهت نحوه لتسحقه على الحائط .

٤ ـ تحريك الجماد وهي القدرة على تحويل المواد الجامدة وتحريكها وإيقافها دون وساطة او طاقة او جهد وعلى بعد سنتيمترات او مئات الكيلومترات ، ولدى البعض القدرة على التأثير ليس فقط في المواد الجامدة بل في الحيوانات وحتى في الناس الآخرين .

وكانت التجارب العلمية على امثال هؤلاء الموهوبين تدور مثلا حول اوضاع النرد وأرقامه وكيفية التحكم في تسلسل اوراق اللعب (الكوتشينة) قبل أن يخلطها ويفرزها الفاحص او الآلة الكهربائية التي تدور آليا دون تدخل الفاحص في العملية .



خوارق الاحساس والعلم الحديث :

قلنا كيف ان علم نفس الخوارق انتقل الى المختبرات وخضع للاسلوب والمنهج العلمي ، وكان المنطق والتفكير المحايد يشير الى امكانية وجود هذه القابليات ، والمعروف في علم وظائف الاعضاء (الفسلجة) ، ان الانسان يشعر بواسطة حواسه المعروفة من سمع وبصر وذوق وشم ولمس الا ان العمليات الحسية ليست بالبساطة التي نكتبها هنا أو نشعر بها .

وقد يكون من الغريب ان تسأل اى انسان لماذا يرى القطن ابيض اللون ، فعنده ان ذلك أمر طبيعي ومفروغ منه ، ولكن السؤال يصبح معقولا اكثر لو سألناه لماذا تراءى له القطن الابيض اصفر اللون ؟ والمسألة لدى علماء النفس ووظائف الاعضاء سواء لان رؤية الاشياء الطبيعية والاحاسيس المتفرقة بانواعها تتم خلال عملية عقلية معقدة .

والسؤال الفلسفي الاعمق : هل يحس الانسان ويدرك كل ما يحيطه من اشياء ، ذلك امر مشكوك فيه ، فنحن ندرك ما تنقله الينا حواسنا ، وهي عاجزة عن نقل كل شيء ، لقد ادرك ذلك الفيلسوف (كنط) قبل عصر التكنولوجيا وقال ان الحقيقة شيء وما نشعر به شيء آخر . . . . .

والعلم الحديث يؤيد ذلك فالناس ليسوا سواء في ادراك الشيء الواحد . . . كما ان لاجهزة الحواس مستويات عليا ودنيا ، أو حدودا لا يتجاوزها الفرد الطبيعي ، فالاذن البشرية الاعتيادية تستطيع ان تسمع الاصوات اذا كانت ذبذبة الصوت لا تقل عن ستة عشر (١٦) ألفا ولا تزيد عن عشرين ألف ذبذبة في الثانية ، بمعنى أن الصوت الذي تقل أو تزيد ذبذبته عن هذين الحدين لا تسمعه الاذن البشرية ولو كان موجودا بقربها فهو فوق حدود السمع ، وهكذا هي الحواس الاخرى للانسان لها حدودها الطبيعية ،

من كل ما تقدم نريد أن نقول ان حدود الاحساس لدى البشر لها معدل طبيعي ، ومن المحتمل جدا ان يمتلك بعض الناس قابليات حسية تتجاوز الحدود الطبيعية وهي التي تبدو لنا من جملة خوارق الاحساس المذكورة آنفا هذا اذا لم يمتلكوا ايضا وسائل عقلية اخرى لا نعرف ما هيتها ولا ندركها تماما .

خوارق الاحاسيس .. هل هي شاذة ؟

الملاحظ في الاشخاص ذوى الاحاسيس الخارقة انها صفات ولادية وطبيعية يمتلكها عقل الموهوب وجهازه العصبي ، او بالاحرى هي جزء من شخصيته دون تمرين او تعلم ، فهى بريئة نستطيع وصفها باللاشعورية أو غير المتعمدة ، وهي موجودة لدى بعض الناس دون الآخرين ، ولو ان العلم الحديث لم يحدد نسبة الموهوبين بين عامة الناس ، ولكن الموهوب بالاحاسيس الخارقة لا يختلف عن غيره من الناس في العواطف والطباع ، والذكاء والمقاييس البدنية .

خوارق الاحساس اذن غير شاذة وغير مرضية ، بل هي تجانب الطبيعة المألوفة ولكنها لا تدخل ضمن العادى والمألوف ، كما انها لا تأتي بالتمرين مثل رياضة اليوجا ، والعكس هو الصحيح ، اذ وجد الباحثون ان الموهوب الذى يتعرض الى الفحص ويحاول التمرين عليه تسوء كفايته وتتكرر مرات فشله ، أما في رياضة اليوجا فان القوى الحسية الخارقة التي يتوصل اليها (اليوجى)تأتي بالتمرين الشاق والتركيز المستمر وتقوية الشعور والارادة ، فالفرق واضح بين الاثنين . ولكن اليوجا تعتبر دليلا غير مباشر يعزز ويدعم علم نفس الخوارق ، إذ يوضح كيف ان العقل البشرى يمكن ان يتطور الى مراتب عليا ويمتلك قابليات حسية خارقة بالجهد والارادة .

كما ان العقل البشرى دخل في مغامرات حسية طريفة عن طريق علم الادوية (الأقرباذين) ، لان بعض العقاقير لها مفعول التمديد وتعميق المشاعر والاحساس ، حتى أن المفكر الشهير (الدوس هكسلي) جرب بنفسه بعضها ودوّن احاسيسه الغريبة التي تخطت الزمان والمكان ، وقد سجلها في كتابه الشهير (ابواب الاحساس) .

وقال في تعليق له على علم نفس الخوارق : ان الانسان يدخل به علما جديدا مثيرا . . .

من الطريف ان نذكر ان اول تجربة علمية على خوارق الاحساس جربت قبل خمسة وعشرين قرنا ، وعلى وجه التحديد في القرن السادس قبل الميلاد

عندما كان الملك الاغريقي (كروسس) يحاول اختبار الكهنة في معابد اليونان ليعرف ايهم الكاهن (العراف) الحق فكان يرسل مبعوثيه ليسألوه السؤال التالي : ماذا يعمل كروسيس ابن الايتسي الان ؟ وفي ذلك اليوم المعين يكون الملك قد جلب شاة وسلحفاة وقطعها اربا اربا ثم يسلقها في قدر نحاسي . ويرجع المبعوثون ليخبروا الملك بما يقوله العراف . واكتشف الملك ان الجواب الصحيح جاء من كاهن واحد هو الذى في معبد (دلفي) الشهير في اليونان .

وعلى الرغم من قدم ذلك الاختبار فانه كان مثالا للتجربة العملية التي يمكن ان تتم في مختبرات علم النفس ، ولم تجر بعد ذلك اية تجربة حقيقية حتى اواخر القرن التاسع عشر كما ذكرنا ، وفي هذه التجارب العلمية التي تتم الان توضع مختلف الضوابط على الشخص « الموهوب » تحت الفحص لمعرفة قابليته لقراءة الافكار أو رؤية ارقام واشكال وصور اوراق مختلفة ، وفي غرف وبنايات اخرى أو على امكان التحكم في تغييرات ترتيب تسلسل تلك الاوراق او النرد . . . الخ وتتصف التجارب العلمية الحديثة لخوارق الاحساس بما يلي :

أ ـ الابتكار والخلق لحادثة مخططة صالحة للتجربة دون الاعتماد على الصدف .

ب ـ التسجيل الفورى والآني لما يحدث خلال تلك الحادثة او التجربة .

ج ـ احتساب مجالات « الصدفة » وتكرارها من الناحية الاحصائية كي لا تدخل ضمن الدلائل على نجاح التجربة الظاهرى .

د ـ التأكد من شخصية المفحوص وبأنه غير محتال او ميال الى اثبات مقدرته حبا في التباهي والغرور .

هـ ـ التأكد من شخصية الفاحص ايضا وعدم تحيزه للتجربة الناجحة وذلك بعرض النتائج على فاحصين اخرين (شهود) اثناء التجربة .

بهذه الضوابط تمكن الباحثون من تمييز تلك الخواص عن بعضها وتمكنوا من الكشف عن المحتالين او المهرجين او الذين يستخدمون فطنتهم وذكاءهم لمعرفة النتائج بالاستنتاج والحدس . مثال ذلك ما جرى للاعب المسرح المدعو (ماريون) الذى تبرع ان يكون مادة اختبار لمعرفة محتويات رسائل مقفلة ومحتويات صناديق متعددة ، وتبين بعد ضبط التجارب ان ماريون كان ذكيا واستخدم حواسه بتركيز ولاحظ بدقة الوجوه وتقاطيع الحاضرين الذين كانوا

يعرفون محتويات الصناديق ، وقد فشل في التجربة عندما كان الشهود على جهل تام بالصناديق او عندما جلسوا وراء ستارة كثيفة لا يراهم من ورائها .

تفسير خوارق الاحساس :

بعد ما يقارب مائة العام من الدراسات والابحاث ، لا يزال من العسير وضع صيغة علمية او تفسير لهذه الظواهر يتلاءم مع منطق العلم المادى الحديث وهنالك مجموعة من النظريات والفرضيات التي تقول احداها بوجود موجات مخية تختلف عن الموجات المعروفة التي يسجلها رسام المخ وانها اشبه بموجات الراديو ، وتقوم بعملية نقل الافكار (نظرية الاستاذ كروكس) . ونظرية اخرى تقول باحتمال انتقال جزيء الذرة الالكتروني من دماغ لآخر (نظرية الاستاذ السويسرى فوريل) . ونظرية اخرى تقول بوجود قوة روحية متنقلة (نظرية الالماني اوستوالد) .

الا ان المتفق عليه ايضا انه ليس بمقدور علم الفيزياء وحده في المستقبل ان يقدم تفسيرا كاملا لظواهر خوارق الاحساس كما يدعي علماء الفيزياء ، كما لا يمكن القول ايضا ان التجارب العلمية لعلم نفس الروحيات ستسد الطريق امام الفيزياء في مجال التفسير المادى ، بل ان الافضل للاثنين ايجاد تفسير يجمع بينهما يوما ما ولا يناقضهما .

آفاق المستقبل :

عندما بدأ علم نفس الخوارق لم يفكر القائمون عليه بشيء الا معرفة الحقيقة ووضع حد للخرافة والاوهام وادخال الظواهر تلك في حساب البحث الجدى ، وكانت التجارب مشجعة على المضي في هذا المجال ، وأصبح أول طموح للباحثين هو أن يدخل علم نفس الخوارق على الاقل كفرع من فروع علم النفس « الرسمى » ، المعترف به ، ووضع حد للذين يتهمون العلم والعلماء بأنهم لا يعترفون بغير المادة . . .

وقد تم فعلا اعتبار علم نفس الخوارق جزءا من علم النفس ، ولكن في النصف الثاني من القرن العشرين ، وهكذا ظهرت الطبعات الجديدة لكتب علم النفس الحديث وهي تشير الى خوارق الاحساس باطمئنان ، وتدخلها من ضمن محتويات فصولها وان كانت لا تملك تفسيرا لها ، كما اصبح علم نفس الخوارق قسما خاصا من كيان الجامعات والكليات العلمية الشهيرة ، ولا تزال وسائل البحث في هذا المضمار محدودة على الرغم من توسع التكنلوجيا وطفراتها الحديثة ، حتى ان احد الباحثين في خوارق الاحساس قال بأسي :

لو توافرت لنا نصف امكانية تجارب الفيزيائيين وأدواتهم في مختبراتهم لتمكنا من تقديم خدمات هائلة للجيل البشرى والمدنية . . . . . .

ويحق لنا أن نتساءل : ماذا يمكن ان يفيدنا هذا النوع من البحث والى اين سيقودنا . . . . وما هي تطبيقاته العملية ؟. ونستطيع الاجابة اولا بأن التطبيقات العملية لا تزال معدومة ولكن الآمال المعلقة عليها كبيرة . والحادثة التالية توضح فائدة عملية جرت في حينها :

مات رجل ثرى في احدى مدن امريكا وترك وصية تجعل من احد ابنائه الاربعة الوريث الوحيد لثروته وبعد تنفيذ الوصية بأربع سنوات رأى احد الابناء الثلاثة حلما يقول له والده فيه إن وصية اخرى موجودة في دارهم القديمة ، فاذا ذهب هناك وجد (جاكتته) القديمة معلقة وفي داخلها وتحت بطانتها يجد ورقة تبين له مكان الوصية ، وقد عثر الابن على الورقة وكان فيها ان الثروة توزع على الابناء الاربعة بالتساوى ، وحكمت محكمة كارولينا الشمالية في مقاطعة (دافي) بتنفيذ الوصية بعد ان تأكد لديها بأنها صحيحة ومكتوبة بخط الميت .

ان مثل هذه الفوائد العملية محدودة بالطبع ، الا ان ما اثبته علم نفس الخوارق من الحقائق التالية يمكن ان يفتح امام الانسان ابوابا اخرى من المعرفة :

- فقد اثبت ان بامكان العقل الاتصال بعقل آخر دون واسطة مادية معروفة . .
- وان بامكان العقل الاتصال بموجودات أو مخلوقات أخرى يشعر بها دون واسطة . . . . . .
- وان بامكان العقل تخطي المسافات الشاسعة . . .

ـ وان بامكانه التأثير في حركة الجماد والحيوان دون اثر لواسطة مادية . .
ـ وان هنالك شيئا لا يدخل في صفات المادة ، قد يكون طاقة او روحا ويدخل في تلك العمليات العقلية ..
ـ وان العقل (او الروح) والمادة يتفاعلان بعملية واحدة ذات اتجاهين . . . . او يسيران في طريق واحد ذى ممرين .

مما تقدم ، نرى ان علم نفس الخوارق يرسم خطوطا جديدة على اللوحة الماثلة للكون وعلاقة الانسان وموقعه منه ، كما يضع في ذهن الانسان مسألة تقول : ان الحقيقة لا تحددها القوانين الفيزيائية السائدة فحسب بل لا بد من وجود قوى أخرى لا تخضع لقوانين المادة . . . بل لقوانينها هي .

اذن ، فمن الجهالة الجزم بأن كل ظاهرة خارقة او غير مألوفة تعتبر خرافة وتدجيلا ، أو بالأحرى إن بعض المعجزات الدينية والتاريخية شيء يقبله العقل والمنطق والعلم الحديث .

ان الانسان لا يزال عالما غريبا معقدا ، فهو والكون المحيط به مجموعة اسرار عظيمة تستوجب التواضع البشرى والحماس العلمي لكشف المجهول والايمان بعظمة الخالق ، فعلم نفس الخوارق يحاول تفسير كيفية التوافق بين العقل والبناء العضوى للدماغ باسلوب يختلف عن الاطار العلمي السائد الآن ، وبذلك يمكنه ان يسلط اضواء جديدة على علاقة الفكر بالمادة .

الكون في ذاتنا وفي الفضاء حوالينا . . . وما علينا الا ان نتدبر ونستعد لمزيد من البحث والتواضع والايمان . ولا شك ان علم نفس الخوارق هو الذى يحمل راية « الروحيات » وهو الذى سيكون اقرب العلوم الى الفكر الديني بل انه فعلا يتلاءم مع الدين ويسير معه جنبا الى جنب . . . والمستقبل وحده كفيل بجلاء الحقائق ، وما علينا الا ان نردد مع (سوفوكليس) قوله :

كثيرة هي عجائب الدنيا . . . .
ولكن اعجبها هو الانسان . . . .

ومن البديهي ان نضيف . « ان عظمة الخالق تتجلى في مخلوقاته » . .

السلوك البشري بين اللذة والألم

« السلوك » تفكير أو عمل يقوم به المخلوق ويتجه به وجهة معينة قد توصله الى هدف أو تقربه منه .

وقد يكون السلوك مستجدا جديدا باعتباره حدث في تلك الفترة لاول مرة من قبل الشخص ، وقد يكون سلوكا مكرورا معادا بصورة تكاد تكون صورة طبق الاصل أو مقاربة لما سبقها . وفي جميع الاحوال . . واذا كان سلوكا مستحدثا أو قديما فانه يستند الى « أوليات » أو « خلقيات » ينشأ عنها ويرجع اليها ، وفي موضوع الخلقيات هذه ومكونات السلوك وأهدافه ودواعي تكراره أو خفوته واختفائه تدور مختلف النظريات والفلسفات والابحاث منذ أقدم مراحل الفكر البشري حتى الآن ، بل لعل « السلوك » هولب الفلسفات والمبادىء جميعا لانه موضع اهتمام الدراسات : الدينية والخلقية والنفسية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية .

ان تعدد المدارس النفسية وكثرتها في تفسير السلوك ومنشئه واتجاهه شيء طبيعي ، لان علم النفس هو فى الحقيقة وبايجاز « علم السلوك » . ومع أن كثرة الدراسات والنظريات أصبحت مصدر حيرة وتردد للكثيرين نظرا لما تقدمه كل منها من حجج وبراهين مختلفة ومتضاربة ، الا أن ما يخيل لنا أنها نظرية جديدة قد نجدها بصيغة وشكل آخر في نظرية ظهرت قبلها بمئات السنين . . ومنذ عهد أرسطو وأفلاطون وابن رشد والغزالي وابن خلدون .

العربي العدد ٢٣١ فبراير ـ شباط ١٩٧٨ م .

محركات السلوك :

ان الذي يدعو للتساؤل حقا هو : ما الذي يدفع المرء الى تبنى سلوك معين في ظرف معين . . ثم الى تغييره أو تكراره في ظرف آخر ؟ . . هل هي العادة ؟ . . هل هي السهولة ؟ . . هل هي اللذة ؟ . . هل هي المكاسب ؟ . . أو هي المثل والمباديء والاخلاق ؟ . . أو أن الانسان مجرد ماكنة تتلقى الايعازات بشكل أوامر عصبية وهورمونات وافرازات ورموز في الجينات والكرموسومات حاملات الصفات الوراثية للكائن البشري ؟ . .

ان الطفل الصغير « يتعلم » الابتعاد عن النار بعد أن يعاني ألم الحرق من مدفأة أو عود ثقاب ، فهو سلوك يمكن تفسيره بتجنب الالم أو ايثار اللذة ، كذلك يدرك البالغ أن السرقة سلوك غير مقبول ويعاقب عليه بحكم الدين والاخلاق والقوانين المرعية ووجود عقاب صريح له ، فهو اذن لايسرق لعوامل أخلاقية ـ اجتماعية ، أما اذا سرق فعندئذ يجيء علم النفس والاجتماع ليفسرا ذلك بأنه « مدفوع » الى السرقة إما لسهولة الكسب غير المشروع وإما لفقر مدقع أو لمرض نفسي يعبر عن حاجة رمزية ذات دلالة بعيدة عن التمرد والنقمة ضد الاسرة أو المجتمع أو الحاجة الى الامتلاك أو الحنان . . . . الخ .

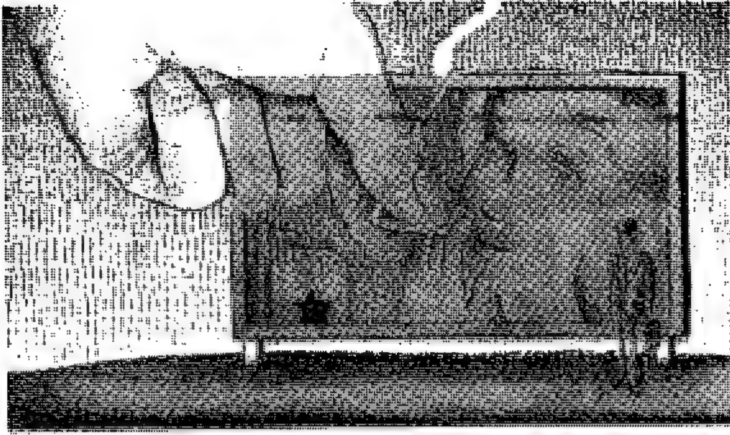
اذن ، فسلوك الانسان يرتبط بعوامل كثيرة متعددة تقرر نوعية وحدته واتجاهه ، وقد حاول الفلاسفة وعلماء النفس وضع معادلات وقواعد لربط هذه العوامل ، ومن أشهر هذه التفاسير : نظرية اللذة والالم ، وفلسفة الرواقيين ، ونظرية قانون التأثير ، والسلوكية الآلية ، والحتمية ، والارادة الحرة . . . الخ مما ستتطرق الى أبرزها .

ويمكن حصر محركات السلوك بثلاث مجموعات من الدوافع والمحفزات :

١ ـ ما يدركه ويحسه الفرد قبل أن يقدم على عمل ما مباشرة . . .
٢ ـ مايجري في ذهنه قبل فترة طويلة من الفعل . . . .
٣ ـ ما يعلق عليه في المستقبل من أهداف ونتائج اذا ما قام بالفعل . . .

الا أن هذه المجموعات الثلاث يمكن أن تنحصر في اثنتين فقط هي :

* الدوافع والحوافز الداخلية .
* النتائج المترتبة على السلوك . . .



ولايمكن الفصل التام بين النتائج والحوافز الداخلية دائما كما بيَّن أرسطو في كتابه الموسوم (De anima) اذ يقول : « عندما توجد اللذة والالم فلابد من وجود الرغبة ، والرغبة تدفع الى اللذة . . » وهذا يعني أن السلوك الذي يعتمد على « النتيجة » انما يهدف الى نتيجة مرضية ومجزية - أي لذيذة ، أو على الاقل « غير مؤذية » .

السلوك . . وقانون التأثير :

جاء بهذه النظرية العالم النفساني (ثورندايك) بعد أن أجرى تجاربه على الحيوانات . وهي من النظريات المهمة في علم النفس الحديث ، وقانون التأثير يشبه الى حد ما نظرية اللذة في السلوك ، اذ يمكن ايجازه بأن المخلوق الذي يفكر في شيء أو يقوم بفعل يعود عليه بالراحة أو الاستقرار ، أي يزيل عنه حالة التوتر والقلق ، عندئذ يتأثر بذلك ويصبح نمط ذلك الفعل راسخا في جهازه العصبي فاذا ما صادف أن مر بظروف مشابهة فانه يلجأ الى سلوك نفس الفعل دون تردد أو تفكير جديد في فعل مغاير ، ويمكن تعريف القانون بما يلي : « ان العقاب أو المكافأة من أقوى الادوات والوسائل لاختيار الافعال المرغوب فيها وتثبيتها وحذف غير المرغوب واستبعاده منها » . فاذا وجدت حالة واحدة لها

عدة استجابات فان الاستجابات التي تصاحبها أو تتبعها مباشرة ذات لذة ورضا للمخلوق تبقى أشد ارتباطا بتلك الحالة اذا عادت ، وعلى العكس من ذلك تضعف الرابطة اذا كانت النتيجة مؤلمة .

ان نقطة الضعف في هذه النظرية انها تتجاهل شخصية الانسان وتعتبر الناس سواسية تجاه كل الحوافز ، وهذا ما لا ينطبق على الواقع ، فالحافز الواحد قد يؤدي الى سلوكين متضادين في شخصيتين مختلفتين والى بضعة أنماط من السلوك اذا اقتضى الامر .

بين القنفذ والثعلب . . .

يقول أحد علماء النفس إنه مهما تعددت تصرفاتنا وردود أفعالنا فبالامكان تصنيفها الى مجموعتين :

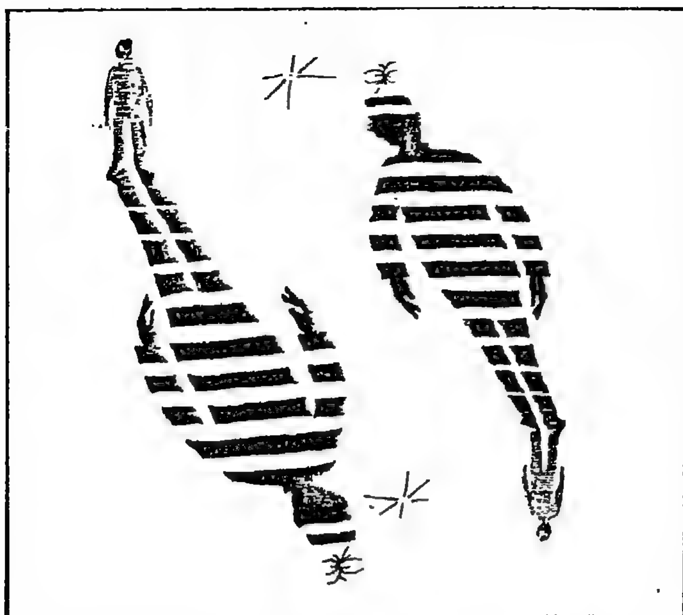
- بسيطة ، وهي ما دعاها بأسلوب القنفذ . . .

ومعقدة ، وهي ما دعاها بأسلوب الثعلب . . .

ولايضاح ما يقصده بذلك نقول ، إن القنفذ ـ وهوحيوان يعيش على أكل الحشرات والنمل ، وله جلد مكسو بشوكات إبرية مؤذية لمن يلمسها ، وكل ما يفعله القنفذ هو أحد سلوكين : اما أن ينبسط وتنام شوكات جلده على بعضها ويسير الهوينا بحثا عن طعامه وشؤونه الاخرى . . أو أنه يتكور على نفسه فتبرز الشوكات لدرء الخطر عنه ويصبح كرة هامدة ثابتة في مكانها لاتتحرك ، وتؤذي من يقترب منها ، ويتخذ القنفذ وضعية الكرة في كل حالة مغايرة لحالة الارتياح ، أي أنها استجابة بسيطة واحدة لعشرات الحالات والحوافز المختلفة عن الراحة ، سلوك واحد بسيط وجواب واحد مكرر .

ومن البشر من يؤثر سلوك القنفذ تقريبا ، لكن أمثال هؤلاء ندرة نادرة . . . لان السلوك البشري أشد تعقيدا وأكثر صورا و أشكالا من تلك .

أما سلوك الثعلب ، فعلى النقيض من ذلك فلكل حالة أو ظرف نجد الثعلب يعد لها العدة ويضع بضعة حلول وردود ، وبتعدد الظروف تتعدد الحلول وتتشابك وتتعقد .



وقد عرف الفلاسفة الاغريق هذين النمطين من السلوك منذ القدم ، وخلد القنفذ والثعلب في الادب العالمي منذ القرن السابع قبل الميلاد اذ ذكره (أرخيلاكس) ، أما (ايرازموس) في عام ١٥٠ م فقد قال مايلي : « للثعلب عدة حيل .. وللقنفذ حيلة واحدة ـ لكنها أحسن الحيل .. » ، وقيل في الثعلب : « لدى الثعلب حلول أكثر مما لديه من مشاكل !! »

ومن البشر من يماثل الثعالب في سلوكها ـ أي بأعداد من الاستجابات لكل طاريء أو حدث مع حذر شديد ومكر وريبة ، وهؤلاء ليسوا ندرة ، والانتهازيون كذلك رائدهم الثعلب وأساليبه لانهم يهيئون ردود الافعال ويحسبون الحسابات الدقيقة كي لاتفوتهم فرصة أو غنيمة ، أما الانسان السوي العادي فانه يستجيب بسلوك معين ، ولا يتشابه اثنان في سلوك واحد تجاه حافز واحد ، فالتعقيد وتعدد الانماط السلوكية لدى الناس الاعتياديين لايتأتى عن الوسوسة ، بل عن اختلاف عوامل أخرى كالشخصية والظروف الاجتماعية والثقافية والتربية والتجارب والفطنة ... الخ .

ماهي حقيقة اللذة ؟

وقد ظهرت نظرية اللذة كعامل حيوي في تحريك السلوك منذ عهد اريستيبوس وأفلاطون وأرسطو وأبيقور ، ثم ظهرت في القرنين السابع والثامن عشر من خلال كتابات ديكارت وهوبز ، أما (بنتام) فقد ربط اللذة بالسياسة والاقتصاد ، وتغلغلت مدرسته في الفكر الغربي ، وجاء فرويد عام ١٩١١ بنظريته النفسية عن (اللذة ومبدأ الواقع) .

وكانت تجارب (بافلوف) على الحيوانات تؤكد أن « المكافأة » تعزز من اتجاه الحيوان نحو عادة معينة ، أما عدم المكافأة (الحرمان أو الالم) فتؤدي الى نسيان العادات القديمة وضمورها وقال (فيخنر) عالم الجمال عام ١٨٧٣ إن اللذة تنجم عن الحالات التي تساعد على الاستقرار .

غير أن اللذة التي يعنيها أحدهم لاتنطبق على نفس المعنى الذي يقصده الآخر . .

واذا كانت اللذة هي المحرك الاساسي للسلوك سواء كانت دافعا داخليا أو حافزا جاذبيا من الخارج ، فهل يعني ذلك أن الانسان يعيش ويتحرك في عالم من المتع فحسب ؟

صحيح أن هناك أناسا يقيسون اللذة بمقدار ما يغرفون من متع جنسية أو بقدر ما يلتهمون من أطعمة شهية أو بضخامة ما يمتلكون من ثروة وأرصدة مصرفية ، بيد أن الواقع لايؤيد ذلك تماما ، اذن كيف نفسر سلوك من يموت في ساحة المعركة وهو سعيد . . ومن يضحي بمتاع الدنيا من أجل ساعة تجلٍّ وتعبد في حضرة الخالق . . ومن يقتل نفسه حرقا ليعبر عن استنكاره ورفضه لقضية ما . . ومن يؤثر السجن على الاستسلام والمسايرة والحياة الناعمة ؟ .

الجواب على ذلك أن اللذة لاتعني المتعة الحسية ـ المادية فقط ، بل الشعور الذاتي بالرضا والاسترخاء والسعادة ، فالسعادة الذاتية ـ الوجودية هي اللذة الحقيقية ، لذلك نرى أن الانسان الذي لايشعر بالراحة في عمل سيقدم عليه أو يعرف ويتوقع نتائجه السيئة يمتنع عنه ويتردد في الاقدام عليه ، و « الامتناع » بحد ذاته هو لذة أخرى من زاوية أخرى ، فتجنب التوتر والقلق وعذاب الضمير هو سعادة حقيقية تكافيء وتعوض عن أية متعة حسية .

اللذة اذن هي معنى ومبدأ وفكر . . هي كل ما يدخل الرضا في قلب الانسان . وبهذه النظرة لانجد معضلة في تفسير السلوك ، فهناك لذة حقيقية لمن يتمسك بمباديء الاخلاق . . ولمن يفضل الاخلاص على الخيانة . . ولمن يؤثر الضنك والدخل المحدود على الكسب الحرام والربا والاحتكار . . ولمن يرى الموت خلودا اذا كان يدافع عن وطنه ومبادئه ، فهناك لذة حسية ولذة أخلاقية ولذة عقائدية ـ فكرية ، أي أن الانسان قد يجد اللذة في تحمل المشاق أو السجن أو التعذيب كي يحقق هدفه البعيد ، فالطريق الى اللذة ليس طريقا واحدا . . واذا اختلفت وسائل اللذة . . فان الشعور الذاتي واحد .

ضد اللذة :

ان كثرة المؤيدين لنظرية اللذة في توجيه السلوك لاتعني عدم وجود معارضين لها . . فقد انتقد مفكرون آخرون مبدأ اللذة والالم وجاءوا ببدائل له .

فقد اعتبر (تولمان) أن القيمة الهادفة هي المهمة في توجيه السلوك ، أي أن ما يتوقعه الانسان من نتيجة هو الذي يقرر نوعية سلوكه . . وهذا ما يشبه النظرية التي تقول إن الانسان عندما يقوم بعمل ما ، ويتلقى ايعازات ايجابية مشجعة لنوازعه مطمئنة لآماله ـ بغض النظر عن اللذة ـ فانه يستمر على العمل والمتابعة ، وعلى العكس من ذلك ، فقد تكون الايعازات السلبية معوقة له ، وهذا ما أطلق عليه « التغذية الايجابية للفعل » وهي نظرية تماثل جدا نظرية (ثورندايك) عن قانون التأثير .

ولا يعتبر (مكدوجل) اللذة من أصل مكونات السلوك بل مؤثرة فيه فقط . . ولم يؤيد أصحاب « مدرسة الاستبطان » في علم النفس كون اللذة والالم محركين وحيدين للسلوك .

وقد رفض (واتسون) مؤسس النظرية السلوكية نظرية اللذة وتبعه أصحاب نظرية التعلم الحديثة ـ وهي السلوكية المعاصرة ـ بنفي مبدأ اللذة كعامل في السلوك واعتبروا « ازالة التوتر » و « اشباع الحاجة » المحرك الاهم في تثبيت السلوك وتعزيزه .

ومن المنطقي جدا تفسير هذا الرفض لمبدأ اللذة بأنه « التفاف » على النتيجة لان كل ما ذكرناه من اصطلاحات وتفاسير علمية ما هي الا مرادفات لمعنى اللذة ـ بمعناها الاوسع الذي تطرقنا اليه ، فاذا كان انسان يجد لذته في الربح الحرام وآخر يجدها في التقشف والتعبد فانهما توصلا عقليا ـ أولا شعوريا ـ الى ذلك نتيجة سلسلة طويلة من التجارب والظروف الحيوية التي حاول تفسير آليتها أصحاب نظريات قانون التأثير أو السلوكيون أو جماعة بافلوف أو فرويد . . الخ . .

وأخيرا . . .

وكما أن الحقيقة الكبرى لاتزال خافية على الانسان . . فكل أجزاء الحقيقة أيضا تعوزها المعرفة ، والسلوك البشري لازال غامضا على علوم النفس والاجتماع والطب والهندسة الالكترونية والفلسفة . لكن ذلك لن يثبط محاولة الانسان اكتشاف ذاته وما حواليه ، فحياة البشرية في مرحلة استكشاف . . ولانزال في أولى المراحل اليها كما رأينا . وعندما يتوصل الانسان الى معرفة عوامل سلوكه ومحركاته فان نظرته الى الكون والحياة ستكون حتما نظرة أخرى ، وسيكون مبدؤه ـ حتما ـ مبدأ آخر .

ان كل نظرية تستأهل منا التقدير والاعتبار لانها محاولة جديدة للوصول الى الحقيقة ، وحتى النظرية الخاطئة الفاشلة هي حافز لايجاد نظرية أصلح . وهي من هذه الزاوية مفيدة للوصول الى العصر الذي نعيشه .

أحسن الكلام وخير الفعال

- لا تؤجل عمل اليوم الى الغد . . .
- في التأني السلامة . . .
القناعة كنز لا يفنى . . .
- المركب التي فيها ربانان تغرق . . .
أقوال حكيمة . . وأمثال شعبية راسخة لم تأت اعتباطا . . . ولم ترسخ وتحيا الا بحكم واقعيتها وصحتها ونجاحها على مر الزمن . . .

العربي العدد ٢٣٨ سبتمبر - أيلول ١٩٧٨م .

صحيحة وخاطئة !

وجميعها صحيحة . . .

وجميعها خاطئة أيضا . . .

وهي صحيحة وناجحة في ظروفها وتوقيتها المناسب . . وهي خاطئة وفاشلة في غير ظروفها وموعدها المناسب . . . فعامل الزمن . . . وحساب الظروف هي الضوابط التي تقرر ذلك . وقابلية المراوغة والتبرير أو خداع الذات هي التي تؤدي ببعض الناس الى اساءة استعمالها والى الاتكال عليها والاحتماء بها لتبرير السلوك والعمل والفكر . . « فلا تؤجل عمل اليوم الى الغد » عندما تكون موظفا في دائرة ومسئولا تجاه معاملات المواطنين المراجعين الذين يتوافدون على مشاكلهم وإنجاز أمورهم . . .

ولا تؤجل عملك وأنت عامل أو فني أو فنان عندما تكون مطالبا بانجازه في فترة معينة وتتمكن من انجازه فعلا . . .

ولا تؤجل عملك وأنت استاذ وممتحن وباحث وطالب اذا كان من المفروض عليك اكمال متطلبات محاضرة أو تقديم أسئلة الى مدير مدرسة أو تطوير البحث أو مراجعة درس معين والبحث عن قاموس أو مرجع . . .

ولا تؤجل منحة ومكرمة واحسانا عزمت عليه وباستطاعتك أداؤه وتقديمه لان التأجيل الى غد لا تحمد عقباه ولا يعرف مصيره . . لانه لو حدث لك خطب أو شاغل أو مرض مفاجيء . . فستفوتك فرصة الاحسان والثواب .

ولكن عليك أن تؤجل بعض الاشياء لأن في العجلة الندامة . . أي أن تتروى وتتريث . . وفي التريث حكمة ومنفعة وعدل . . فلا تستعجل الحكم على الناس من مظهر أو بادرة منفردة . . ولا تستعجل العقوبة على مرؤوسيك وأنت غير مستوف جوانب التحقيق وظروف المخالفة والتقصير . .

ولا تستعجل في الحب . . وفي الزواج . . وتريث وتردد كثيرا اذا أقدمت على طلاق أو انفصال أو خصام . . .

ولا تستعجل وتستبق الحوادث وتبن عليها المشاريع العاجلة السريعة ، بل دعها في ذهنك مستقرة هادئة لتنضج الحلول معها . . .

ولا تستعجل في الادانة والاهانة والعراك . . .

ـ « والقناعة كنز لا يفنى » . . . ولكنها أحيانا لا هي بالكنز ولا هي بالباقية . . القناعة واجبة في الازمات . . وفي المحن . . وعندما يمر الوطن والناس في ظروف عصيبة من كوارث طبيعية أو موجة جفاف وسنوات عجاف واقتصاد صعب مقنن .

والقناعة واجبة أمام حكم الله والاقدار والامراض والمصائب ، عندها يدرك الانسان أن السعادة ليست احتكارا لاناس ومحرمة على آخرين . . وأن البشر جميعا معرضون للمرض والمصائب وأقسى الحوادث والمحن . .

والقناعة مفتاح الصبر . . . والصبر مفتاح الفرج . . فهي اذن دليل الصلابة والصمود والانتظار والتأهب للمعركة والكفاح . . .

أما القناعة الذليلة فهي خسارة وليست بكنز . . القناعة التي تخدر الانسان . . وتجعله آلة بشرية جامدة ترضى بكل شيء ولا تتطلع الى العمل والتقدم وتحسين الاحوال هي مرض اجتماعي وعلة خبيثة تشل الانسان وتجمده . . .

القناعة التي تقتل روح النقاش والنقد والنصح هي الخرس الفكري الذي يعيق الحضارة ويعرقل المجتمع . . .

والقناعة بالحاضر لن تطور المستقبل . . والقناعة بما وصلت اليه العلوم لن يدفعها الى الاستزادة من معرفة الكون وأسرار خلق الله واستكشاف المجاهيل . . .

و « السفينة التي فيها قبطانان تغرق » لان بعض المواقع والمواقف تتطلب قرارا من شخص واحد وادارة من مصدر مركزي هو المدبر والمدير والمنظم .

ولكن « سفينة الاسرة » لا يمكن أن تسير بادارة شخص واحد . . وبقرار تعسفي إما الزوجة الآمرة الناهية المسيطرة . . أو الزوج الطاغية الاناني ، وكل منهما يريد أن يقود الأسرة وتربية الاطفال وادارة شؤون البيت حسب أهوائه ومزاجه فكلاهما خاسر . . والسفينة ستقف أو تعطب أو تتعثر في ابحارها . . . فادارة الأسرة يجب أن تتكون بالمشاركة والديمقراطية والاعتراف بحقوق الآخرين . . ديمقراطية الابوين وتفاهمهما هي رمز الاسرة الناضجة . . واتفاق

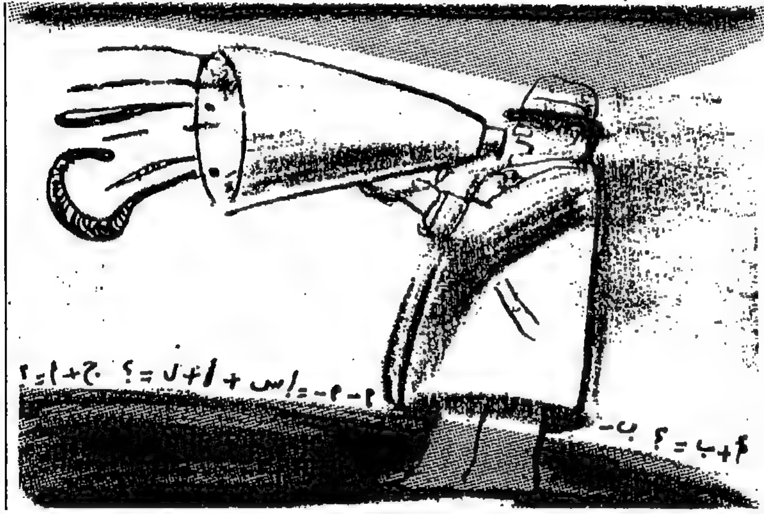
رئيسين أو ثلاثة في البيت هو الضمان لسير العجلة . . .

يقول الامام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه :

« من شاور الرجال . . شاركها في عقولها . . » . . . وهناك مئات من الاقوال والاحاديث والحكم ينطبق عليها نفس التحليل ولها نفس الازدواجية والتناقض الظرفي وليست التناقض الداخلي . . .

فالقول الصائب هو الذي ينطبق على الظرف الصائب . . والفعل الجيد هو الذي يتم في الوقت المناسب . .

والتناقض الظاهري (الظرفي) بين مجموعة من الافعال والحكم المتناظرة ـ المتقابلة هو في من يستخدمها وليس في حد ذاتها . . .



سلاح ذو حدين :

لماذا اذن هذا التناقض ؟ . . ولماذا نحتار في أيها أصح وأدق ؟ . . السبب واضح جدا . . لان هناك صنفين من الناس :ـ

الصنف الاول : هو الذي يريد أن يهزأ بالآخرين ويدير عقولهم فيستخدم الامثال والحكم في اقناعهم وتسييرهم وفق مشيئته وهو يدرك بمكر وذكاء أن

الحقيقة خلاف ذلك .

وتنطلي هذه الحيلة الحياتية على السذج والبسطاء والأتباع .

والصنف الثاني : لا يخدع غيره بقدر ما يخدع نفسه من خلال آلية عقلية لا شعورية هي آلية التبرير فعندما يجد الانسان نفسه أمام عقبة أو معضلة لا يستطيع النفاذ فيها أو حلها أو التغلب عليها فانه يتراجع ويتخذ سلوكا آخر . . ولكنه يبرر هذا الفشل بعذر مقبول لديه ولدى الاخرين وبذلك « يحفظ ماء وجهه » . . . فاذا لم يدخل في مغامرة أو صفقة تجارية مربحة . . قال :

« إن القناعة كنز لا يفنى » . . واذا قيل له ، كان الحل الفلاني أمامك للقضاء على المسألة الفلانية أجاب « الرتق كبير . . والرقعة صغيرة . . » . واذا وجد نفسه متأخرا في عمل ما قال « في العجلة الندامة » . . واذا انهال عليه اللوم لتعجله الامور ، ولم يتحل بصبر وروية أجاب « لا تؤجل عمل اليوم الى الغد » . . . مثل الثعلب الذي لم يستطع أن يصل عنقود العنب الناضج ليأكله . . . فنكص على عقبيه وهو يقول إنه عنب حامض نيء (حصرم) . . .

أدب القرآن والفقه ، براهين مضيئة :

. . . وفي الآيات القرآنية دلائل دامغة على أهمية زمان الكلام ومكانه . . . فقوله تعالى : « . . لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى . . » كان أمرا مرحليا مناسبا من الناحية النفسية والعقلية لتطور الدعوة النبوية . ولا يصح أن نستشهد به بعد مرحلته لشرب الخمر في غير وقت الصلاة لانه أصبح من المحرمات بعد ذلك بزمن قصير . . كذلك لا يصح الاخذ بجزء من آية قرآنية ونتجاهل تتمتها ومناسبتها ومعناها وأبعادها . . . ولكن من الناس (في كلا الصنفين اللذين ذكرناهما آنفا) من يكتفي بالجزء الاول أو الثاني أو الاخير من آية ليجعلها ملائمة لاهوائه . . كأن يستشهد بالجزء الاول من الآية الكريمة في قوله تعالى « ويل للمصلين . . الذين هم عن صلاتهم ساهون . . » فيأخذ بالجزء الاول « ويل للمصلين . . » .

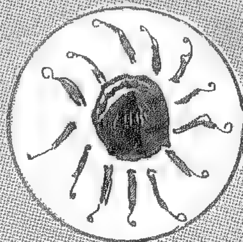
أو يستشهد بالجزء الاول من الاية الكريمة في قوله تعالى . . « ان الله لا يستحيي / أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها » . . .

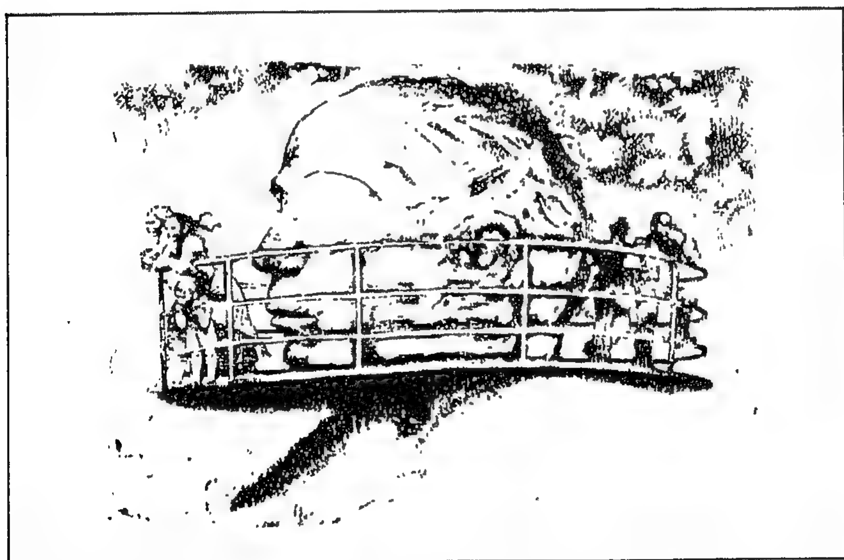
فيأخذ بالجزء الاول . . ولا يستحيى هو أن يجاهر بذلك كالحمقى تماما . . .

وأخيرا . . فان في فلسفة الامثال الشعبية والحكم ، والاحاديث النبوية الشريفة من الكنوز ما يفي بأغراض حياتنا المعاصرة من جميع جوانبها . . فهي حلى فكرية نزين بها عقولنا وسلوكنا . . ولكن الحلية يجب أن توضع في مكانها . . وأن تأخذ حجمها ولونها المتناسق مع الانسان ذاته . . بشخصه وعمره وملبسه ومركزه وزمانه ومكانه . . . وكل ذلك يحتاج الى حاسة خاصة . . يدعوها البعض « بالحاسة العامة » .

الفصل الثاني

أضواء على النفس البشرية





بين العبقرية والأمراض النفسية

من المعروف أن أي انتاج أدبي أو فني أو فلسفي يرتبط بجذور نفسية في شخصية الاديب أو الفنان أو الفيلسوف . أي أن الفكر والادب والفن يتفاعل مع وجدان المنتج وذهنيته قبل أن يصل الى العالم ، ولولا ذلك لاصبح الانسان آلة مجترة لافضل لها في تطوير وتحسين ، أو حذف واضافة ابتكار واختراع . واذا سلمنا بهذه الاوليات الفكرية أدركنا أن الانتاج الفكري والفني لايمكن عزله وتجريده عن شخصية صاحبه مهما حاولنا اغفالها أو تجاهلها ، وشخصية المبدع - كأية شخصية بشرية - تعتمد على كيفية نضجها منذ الطفولة وحتى البلوغ وعلى نوعية التجارب والظروف الحياتية التي يمر بها ، وعلى المؤهلات الجسمية والوراثية أيضا ، ومن دراسة تاريخ حياة الانسان نستطيع تبرير سر نبوغه في ميدان فكري دون آخر ، ونستطيع تفسير طبيعة انتاجه وهواياته واتجاهاته وفلسفته في الحياة .

وليس سرا على القارىء المتتبع الفطن أن يستنتج أن الادب المتشائم غالبا مايصدر عن نفسية قاتمة يائسة ، وأن الشعر الرمزي المغلق ينتج عن نفسية مغلقة تميل الى التعقيد ان لم تكن معقدة بالاصل ، وأن المغامرات والبطولات قد تنتج

العربي العدد ١٧٣ - ابريل - نيسان ١٩٧٣م .

عن أوجه متعددة وتفاسير مختلفة وأسباب مختلفة وأسباب متباينة أيضا ، أي قد يكون الرمز متعمدا لحماية النفس من نقمة أو سلطة أو رياضة الاستعلاء على الاخرين ، وقد تكون أحاديث المغامرة أحلاما نفسية خجولة منكمشة تعوض عن شعورها بالعجز ، ومهما كانت النتائج ، فان رابطة منطقية تصل بين الشخصية وانتاجها .

واعترافنا الضمني بالعلاقة اللازمة بين نفسية الانسان وانتاجه يترتب عليه اقرارنا بضرورة تقبل الانتاج كما هو مجردا عن السلوك الفردي أو الاخلاقي ، ولايضاح ذلك يمكننا مناقشة الانتاج بالقياس الى الصفات الشخصية .

بين الاعجاب والازدراء . . .

كثيرا ما يصادف أن يتصاعد اعجاب الفرد بانتاج ما الى حدود خيالية ، وترتفع معه شخصية الكاتب أو الفنان الى درجات من السمو والتقديس ، وتحاط شخصيته بهالة مغرقة في السمو ، ثم يصادف أيضا أن يكتشف ذلك الفرد ثغرة أو مثلبة أو حدثا ينقص من شخصية ذلك المفكر أو الفنان ، فتجعله يرتد الى حالة من خيبة أمل وفشل أليم ، وينهار معه الاعجاب السابق وتختلط عليه القيم ويشعر بالأسى وربما بالازدراء تجاهه .

وخيبة الأمل هذه تدل على أن العوامل الفردية والاخلاقية اتخذت كأدوات تقييم للانتاج ، وأن التقييم انتقل من الموضوعية الى العاطفية ، أي الى الازدواجية والتناقض وذلك لسببين :

الاول : لان الناحية الفردية للفكر أصبحت ميزانا وامتحانا لانتاجه .

والثاني : لان اتخاذ موقف التقييم استنادا الى الشخصية لابد أن يؤثر في الانتاج ، شئنا أو أبينا . فكيف نتوصل اذن الى موقف عادل ؟ .

وقبل الاجابة على ذلك (وهي مهمة عسيرة ومسئولية دقيقة تواجه النقاد قبل كل شيء) ، قبل كل ذلك فلنستعرض نماذج من الشخصيات التاريخية وما كشفه علم النفس من اضطراباتها وأمراضها التي عانتها :



كيركجارد . . . . والوجودية

الفيلسوف الديني الدنمراكي كير كجارد (١٨١٣ ـ ١٨٥٥) ، كان ناقما على الفلسفة التخمينية ، كتب عن الوجود والعدم ، وعن الايمان والحقيقة والعقل . وكانت أفكاره أساسا للوجودية الحديثة والوجودية الدينية الثائرة على مفاهيم البروتستينية . وهو القائل : « الحقيقة هي الذات . . والحقيقة هي ما يحققه الفرد » . ولكن المعروف عن كيركجارد أنه كان مصابا بتقلبات وجدانية تتراوح بين الاكتئاب الشديد الى المرح الطبيعي ، وهذا ما ينطبق على أعراض المرض المعروف بذهان الكآبة والهوس الدوري . ومرض الكآبة يثير في المصاب نظرة نقدية للانسان والوجود وجدوي الحياة بل ربما يجعله فيلسوفا أحيانا . وكان كيركجارد يطوي في ذاته شعورا بالاثم منذ صباه لان والده كان قد هاجم الدين مرة أمامه وكفر في شبابه .

فهل أصول الفكر الوجودي الذي نعرف به وزنه ودعاته كان نتاجا لذهنية مكتئبة وشخصية معقدة متقلبة الطباع . وهل يكفي ذلك للطعن في صحة الفكر الوجودي ؟؟

أوسكار ويلد . . والانحراف

والكاتب القصاص الروائي الانكليزي أوسكار ويلد (١٨٥٤ ـ ١٩٠٠) ، كان يقطر نقدا وسخرية على قيود المجتمع . وكان ناقدا للخير والشر (قصة دوريان جراي) ، وداعية للفن والجمال ، ورافعا لشعار « الفن من أجل الفن » ، وكان صريحا وثائرا وعبر عن تحديه وثورته على المجتمع الانجليزي في أواخر القرن التاسع عشر بملبسه وهيئته الاجتماعية فراح يرتدي ملابس غريبة الالوان ، مضحكة وشاذة لايمكن اغفالها بين آلاف الناس . وكانت هيئته وتصرفاته نسائية ، وقد اتهم أوسكار ويلد أيضا بالانحراف الجنسي ، وسجن لمدة سنتين لمخالفات أخلاقية ، الا أن كتاباته وتمثيلياته ظلت على قوتها وجاذبيتها واحتفظت بمعجبيها حتى وهو في السجن . ولم تحدث سيرة أوسكار ويلد مفعولها العكسي لدى المعجبين . . .

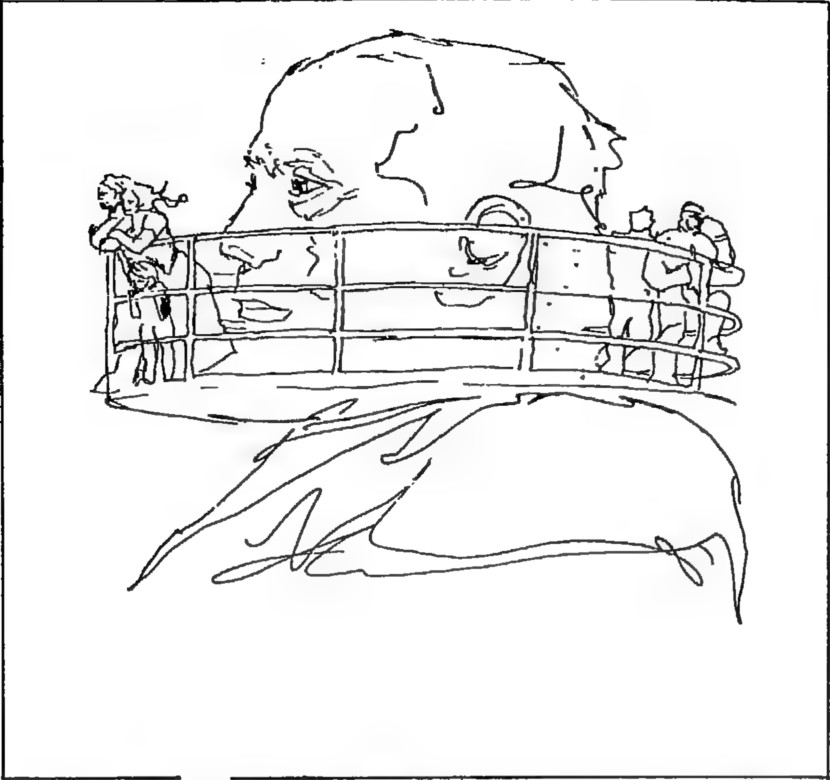
فان كوخ . . . المريض

والرسام الشهير (فان كوخ) (١٨٥٣ ـ ١٨٩٠) ، كان مصابا بمرض عقلي اختلف في تحديده على وجه الدقة علماء نفس معروفون،فالعالم النفساني والفيلسوف (ياسبرز) قال إنه مصاب بالشيزوفرينيا (الفصام العقلي) ، وأيده في ذلك آخرون ، الا أن باحثين آخرين استنتجوا من طبيعة رسمه وأسلوبه أنه كان يميل الى التنقيط الكثير والى تكرار الخطوط بصورة تشبه تكرار القصور الحركي في مرض الصرع ، أي أن الشخص يعيد ويكرر نفس الحركة والعملية باستمرار ، ودليل اصابة فان كوخ بالصرع هو تلك الرؤى الغريبة الخيالية والمواقف الذهنية التي تبناها ، والرسائل المفلسفة المبهمة التي كتبها لبعض أصحابه ، ولعل تباين التشخيص والجدل الطويل حول طبيعة مرض الفنان كوخ قارب نهايته الآن بعد أن تبين في السنوات الاخيرة أن الصرع يمكن أن ينتهي بالشيزوفرينيا ، وأن كلا المرضين يمكن تواجدهما في فان كوخ .

ترى هل ان اعجابنا بلوحات الفنان الشهير هو اعجاب بفن صادر عن مخيلة عقل مصاب بالصرع والذهان ؟ .

نيتشه . . والعته . . والاستعلاء

والفيلسوف (فريدريك نيتشه) (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠) ، الذي تسلم كرسي الاستاذية وهو في الخامسة والعشرين من العمر ، أدخل على الفكر الانساني نغمة الارادة والقوة والسيطرة والعنف ، ولاريب أن فلسفة نيتشه كان لها تأثير كبير على كل ميادين الفكر العالمي ، وتأثيرها أوضح في الفلسفة الوجودية وفي أدب (برناردشو) و (ابسن) ، ومنذ بلوغه الخامسة والثلاثين بدأ نيتشه يشعر بصداع متكرر ، وآلام في العينين ، لكنه ظل يشعر بالكفاية والقوة ويؤكد عافيته ، وكانت رائعته (هكذا تكلم زرادشت) لاتحتوي ظاهريا على مايدل على اصابته بمرض عقلي ، الا أن لغتها الغريبة وظهور (السوبرمان) بين ثناياها ، والدعوة الى الاستعلاء « والعودة السرمدية » كان أشبه بدين جديد (بشر) به نيتشه باسم « النبي » زرادشت ، وقد تبين أن نيتشه كان مصابا



بالتهاب الدماغ الزهري (ومايسمى أيضا بالشلل الجنوني العام) ، ومن أهم أعـراض هذا المـرض الشعور بـالعافيـة غير الـطبيعية وبـالكبريـاء ، وبعـدم الاكتراث ، ثم التدهور التدرجي في الـذاكرة ، ثم الجنـون والشلل العام ، وعندما ظهرت أعراض الجنون علي نيتشه ، كان هو يتحدث حينذاك عن كونه « المسيح » ، وراح يوجه الخطابات الى الملوك والامراء ، وقضي آخر سنى حياته في مستشفى للامراض العقلية ، ثم تكفلت أمه وأخته برعايته في مكان منعزل بعيد عن الانظار .

ترى ، هل كانت فلسفة القوة التي ارتكزت عليها ألمانيا النازيـة نتيجة جرثومة الزهري ؟

دوستوفسكي . . المضطرب

أما الكاتب الروسي الشهير (فيدور دوستوفسكي) (١٨٢١ - ١٨٨١) ، فقد عاني من حياة مضطربة ، وكان معظم حياته معدما ومدينا لغيره ، وقد انغمس في المقامرة فترة من حياته وكتب أثناء ذلك رائعته (المقامر) ، ويمتاز دوستوفسكي ببراعته في تصوير أفكار النفس البشرية وانفعالاتها،وكان مصابا بداء الصرع الذي اضطره الى ترك الخدمة العسكرية كضابط في الجيش القيصري ولازمه الصرع حتى الكبر ، وقد أجاد وأبدع في وصف الأحاسيس الغريبة للمصاب بالصرع عندما تقترب منه النوبة أو عندما يستفيق منها ، وصور الاضطراب الوجداني والمشاعر غير الطبيعية للصرع في ثنايا قصته (الأبله) التي كان بطلها مصابا بالصرع أيضا .

ترى ، هل كان الصرع سببا في الحياة المضطربة الصاخبة للكاتب المقامر ؟ . . وهل اكتسبت روائعه شيئا من التغيرات الذهنية أو بصمات العقل المصاب بالصرع ؟

الشخصية الغامضة :

واذا تناولنا انتاجا عالميا عميق الاثر كانتاج شكسبير مثلا وجدنا أن روائعه لاتكف عن اجتذاب المعجبين ، ولم تخب عبقريتها على مر الزمن ، ففيها دراسات لجوانب النفس البشرية من بخل وغيرة وغدر وحقد وكآبة وانتحار وحب طاهر ، وان معلوماتنا عن شخصية شكسبير غير وافية ، مما دفع بعض النقاد المتشككين الى اعتباره شخصية مبهمة أو مقتبسة جامعة غير أصيلة أو شخصية متنكرة ، وكل ذلك التخبط حول سيرة شكسبير وقابليته من بساطة منشئه وهدوء حياته مما اضفى عليه مسحة من الجلال والاكبار .

ترى لو كان شكسبير معقدا أو مريضا أو كانت حياته الشخصية تعج بالشذوذ والفضائح ، فهل نتوقع أن تتبدل نظرة الناس اليه والى انتاجه ؟ . وهل الرأي العام يميل الى الغموض ويفضل الشخصية المجهولة أو المستترة ؟ . اذا أبينا على أنفسنا هذه الانفعالية السطحية ، فان مثالا آخر يصلح أن يواجهنا

صراحة بالدوافع النفسية أو النقد والتقييم ، والمثال هو جبران خليل جبران .

فالكاتب اللبناني المهجري ، الفنان الحالم ، الفنان الرومانسي ، الداعي للفضيلة النظرية . . جبران ، تبين من رسائله الشخصية الى سيدة أمريكية كانت العون الروحي والسند المادي له معظم حياته ، تبين أن جبران كان يعيش حالة من التمزق والتناقض الذاتي يدل على قلق عصابي وشعور بالنقص وعجز في الشخصية ، وأنه في كتاباته كان ينافس (دون كيشوت) في مغامراته ومبالغاته واختلاقه للمواقف والازمات الكاذبة مع تفخ وتعظيم للذات : ولاريب أن تلك الرسائل الخاصة صدعت صروح اعجاب الكثيرين وبددت أحلامهم في بطولة جبران المثالية .

ويبدو أن المثقف يميل الى عدم معرفة تفاصيل حياة الكاتب والفنان لئلا يعرف عنه مايسيئه أو يؤلم مشاعره ، فان عرفه فلا يشترط أن يكون حكمه عليه مشوبا بالخيبة أو الاستياء الا في حالات خاصة يمكن اجمالها بما يلي :

ان الانتاج الذي يعبر عن حياة صاحبه ومشاعره « وامراضه » يختلف عن الانتاج الذي يناقض حياة صاحبه ومشاعره وسلوكه ، فأدب الوعظ والاخلاص والتضحية يجب أن يكون القائل به مخلصا مضحيا حقا ، ولابأس أن يكون أدب المقامرة بقلم أديب مقامر، ولاضير أن يكون شعر السخرية بلسان ساخر ثائر . . ولابأس أن تكون فلسفة ما ناتجة عن عقل اجتاحته وجدانيات الكآبة أو نفخته موجات الاستعلاء ، لابأس من كل ذلك ، مادام الانتاج ينسجم بصدق مع معاناة الاديب والفنان والفيلسوف . عندئذ يكون الانتاج « مفهوما » حتى بلغة المرض النفسي أو بمعيار التسلسل الحيوي المنطقي ، وهذا هو الصدق الفني والفكري الحقيقي .

أما التناقض أو التمثيل أو استغفال القاريء والجمهور فهو الذي يصبح موضع النقمة والاهمال والخيبة ، ولعل في هذا الاستنتاج مايفسر العوامل النفسية الدفينة في النقد والتقييم ، وهي عوامل ذات طابع أخلاقي ، ولكنها أقرب الى العدل والتجريد ، وأقرب الى مبدأ الالتزام والانتماء ، أما الالتزام الافضل والانتماء الاجمل فهو عندما يحاول الكاتب ألا يحشر مسائله الخاصة جدا لاشغال أو إلهاء أو سوء توجيه لقرائه أو معجبيه أو مواطنيه .

المقامرة ... هل هي مرض نفسي *؟

أدق مَن وَصَف النفس واختلاجاتها ، وأروع من كتب عن السلوك الانساني وغرائبه ، هم الادباء والشعراء والحكماء . كانوا « علماء نفس » قبل وجود كيان لعلم النفس . وبين ثنايا القصص ، وفي بطون الكتب ، ومع رفيف أجنحة الشعر . . . كنوز وأمثلة على خفايا النوازع والغرائز والاتجاهات البشرية التي ربما يستند إليها العالم النفساني والطبيب المعاصر لمقارنتها ومساواتها بمثيلاتها من وقائع مرضية تصادفه في مجرى معالجاته الطبية الواقعية . .

وعن المقامرة . . تحدث الكثيرون . الا أن أصدق وأبرع من كتب عنها هم المقامرون أنفسهم ، خلال اعترافاتهم وبثهم أشجانهم لخلانهم أو معالجيهم . قال الشاعر الفرنسي (فرانسوا فيلون) في القرن الخامس عشر الميلادي :

لا أثق الا بما هو غير أكيد . .

فالاشياء الواضحة ، هي بالنسبة لي غامضة ، ولا تريني الا الحقيقة . .

ولا أستمد معرفتي الا من صدفة عمياء ، فاذا ربحت كل شيء . . فسأتقاعد مع الخاسرين .

---

* العربي العدد ١٢٢ نوفمبر - تشرين الثاني ١٩٦٩ م .



ولعل هذا أدق وصف لعدم وضوح النتائج أمام المقامرين ، بل هو سر انجذابهم الى المقامرة .

ومن عشرات القصص عن المقامرين ، تقفز دائما رائعة ديستوفسكي (المقامر) ـ عام ١٨٦٦ ـ التي هي في الحقيقة تاريخ حياته وحياة كل مريض بالمقامرة . وفي احدى رسائله كتب ديستوفسكي الى صديق له يقول : النقطة الاساسية ، هي اللعبة بحد ذاتها . وأقسم بأنني لست طامعا في مال ، على الرغم من حاجتي اليه . . » . وهذا يفسر رعشات المتعة والاثارة والنشوة في « لعبة » المقامرة بغض النظر عن الربح والخسارة .

سلوك ضار :

المقامرة مفتاح لكل الشرور . . هي التي تحرق أعصاب الشخصية الانسانية . . هي التي تنتزع الفرد من حظيرة أسرته ومجتمعه السليم . . وتشجعه على الاستدانة وعلى الاختلاس أو التزوير ، وربما الادمان أيضا ، وفوق كل ذلك فهي تهدد اقتصاديات البلد . ولذلك كانت المقامرة موضع اهتمام الكثير من الملتزمين الاجتماعيين والفلاسفة وعلماء النفس . قال شوبنهور : « ان المقامرة اعلان افلاس الذكاء البشري » . وقال فاوست :

« تظن أنك المؤثر . . بينما أنت المدفوع ! . . »

وفي ١٥ آذار من سنة (١٩٦٩) عقد في لندن مؤتمر عن المقامرة برعاية (مجلس الكنائس) . وضم المؤتمر كل من عالج أو ساعد أو نصح أو أرشد المرضى المصابين بالمقامرة . وهكذا كان بين المؤتمرين مجموعة من علماء النفس والاجتماع والباحثات الاجتماعيات والاطباء ، والمراقبين القانونيين للمحاكم ، وكذلك ضباط السجون . وخرج المؤتمر بقرارات مفيدة جدا . وكان انعقاد المؤتمر دليلا على خطورة هذا السلوك البشري وازدياده ، وعلى آثاره الهدامة للاسرة وللاخلاق واقتصاديات المجتمع وانتاجه .

وليس أدل على ذلك مما تورده الاحصائيات عن المقامرة .

ففي سنة ١٩٦٠ بلغ مجموع ما استعمل من مبالغ في عمليات القمار في انكلترة وحدها ٥٠ ألف مليون دولار ، وبلغ عدد الذين يقامرون ـ ولو مرة في حياتهم ـ من سكان بريطانيا الذين بلغوا سن الرشد ٤٨٪ من مجموع السكان ! . والذي روع رجال الاقتصاد والاجتماع أيضا ، ما لمسوه من النقص الشديد في عدد النساء العاملات ، اذ أن قسما كبيرا منهن يعملن في مصالح ومؤسسات القمار بدل المصالح والمؤسسات المفيدة الاخرى كالمستشفيات أو المصانع . وما ينفق على جهاز المقامرة من اعلانات وطبع وأجور يستنفذ حوالي ٦٥ مليون جنيه من الدخل القومي في انكلترة .

وفي تقرير لسنة ١٩٥٩ (صادر عن مجلس الكنائس أيضا) ، كانت نفقات المقامرة على سباقات الخيل ٣٦٥ مليون جنيه ، وسباقات الكلاب ١٢٤ مليون جنيه وكرة القدم ٩٨ مليون جنيه ، ومتفرقات أخرى ٧ ملايين جنيه .

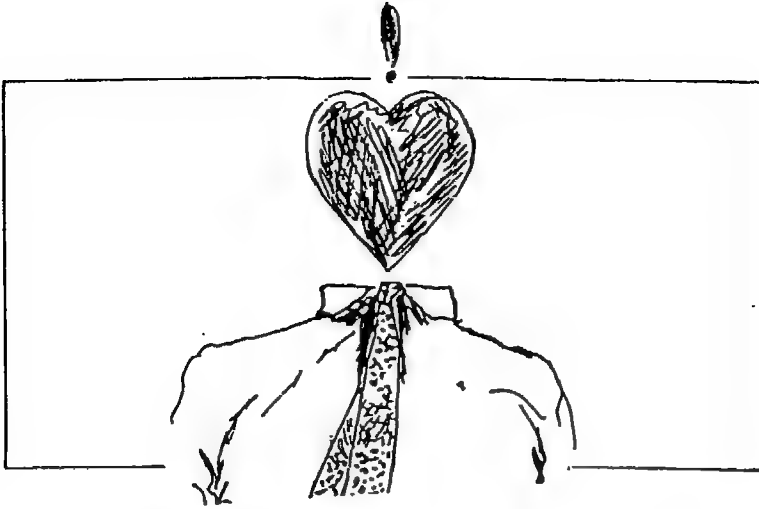
أما مطبوعات جهاز المقامرة فتحتل مساحات من الصحف والبطاقات والنشرات تقدر بخمسمائة فدان في الاسبوع الواحد ! وفي كل أسبوع ، يطبع ما يزيد على ١٢ مليون كوبون أو قسيمة توزع من قبل آلاف الافراد ، بالاضافة الى أعمال جهاز البريد الرسمي ، والخسارة والتبذير في الاحاديث التلفونية وفي مراكز النقل والميكانيك .

تاريخ طريف وعريق :

واذا كانت المدنية الحاضرة قد جعلت من المقامرة ممارسة جماهيرية شاملة وزودتها بوسائل تكنولوجية خلابة وسريعة العمل . . فانها ـ كسلوك بشري ـ عريقة في القدم .
والحفريات المتوالية والآثار المتوافرة الى الان تدل على وجود المقامرة في أعماق التاريخ وفي مختلف الحضارات العريقة : قطعة (نرد) وجدت في أحد قبور الفراعنة المصريين يعود تاريخها الى ٣ آلاف سنة قبل الميلاد ! . . ولوحة ألعاب على شكل درجة أو (عتبة) في (الاكروبوليس) في أثينا . . وآثار رومانية متعددة .

ويذكر المؤرخون الموثوق بهم حكايات طريفة ومذهلة عن المقامرة . فالمؤرخ تاسيتوس مثلا يذكر أن قبائل الجرمان الاوائل كانوا يراهنون على زوجاتهم وأطفالهم ، وحتى على أنفسهم . . والخسارة تؤدى بهم الى الرق والعبودية . . وكذلك تفعل بعض القبائل الافريقية مثل الزوني والزولو ، ووجد القمار في الفرس القديمة والهند واليونان . ولعبة النرد قديمة جدا ، يؤرخها هيرودوتس منذ أيام (الليديين) . ووجدت في انكلترة بعد احتلال الرومان لها . وقيل إن الامبراطور الصيني (ياو) ابتكر ألعاب الحظ منذ ألفين ومائة سنة قبل الميلاد . وراهن صيني قديم على يده ، فلما خسر قطعها ! .

وفي (المهابهراتا) التي هي أعظم سيرة سنسكريتية في يدنا ، يمكن العثور على حكاية الملك الطيب (يودشتير) الذي لعب القمار مع الملك الخبيث (ساكوني) ، وهو الخبير في استعمال النرد المغشوش ، ثم تروي الحكاية كيف بدأ الملك الطيب يخسر الجولة بعد الاخرى . . الى أن أفرغ خزانته من الذهب والياقوت . . والى أن خسر الخيول والفيلة والمركبات والعبيد . . ثم كيف راهن على اخوته وعلى زوجته الملكة الفاتنة (دوربادي) فخسرهم جميعا . . وأخيرا راهن على نفسه . . وخسر كل شيء !!
وكان القمار موجودا في اليونان ، ولم يعتبر « ممارسة محترمة » . . حتى أن أرسطو في كتابه (الاخلاق) صنف المقامرين في طبقة اللصوص وقطاع الطرق .



وظهرت موجات وبائية من المقامرة ، كما حدث في منطقة المسيسيبي من أمريكا أيام الاقتصادي (جون لو) عام ١٨١٧ م ، وفي الحي الغربي (الوست اند) من لندن في القرن التاسع عشر الذي غص ببيوت القمار .

ومن طرائف المقامرة في الايام الغابرة ، المراهنة على سباق الحلزون على مائدة صقيلة ، وقيل إن مقاطعة كورنول في انكلتره وصلت الى مالكيها الحاليين عن طريق تلك المراهنة . . اذ حاول المالك الاول أن يحفز حلزونه على الجري بوخزه بالدبوس . . الا أن « مزاج » الحلزون آنذاك لم يستجب للوخز واستمر يزحف الهوينا دون اكتراث . . وتمت الخسارة ! . .

ركائز بدائية :

وتاريخ المقامرة القديم ، مع العوامل النفسية التي تصاحبها ، تشير الى أن المقامرة ليست سلوكا بسيطا معزولا « نقيا » ، وأكثر ما ترتبط المقامرة في المجتمعات البدائية بالسحر والارواح الشريرة والرعب والخوف من المجهول والاعتقاد بالقوى الخارقة وبما وراء الطبيعة . وهكذا أصبح الشعور بالضياع والغربة دافعا لمعرفة البخت وقراءة المستقبل والحظ ، والى تقديم القرابين للآلهة

الوثنية .

فالمقامرة وسيلة بشرية للتحكم في المجهول وتحدى الشكوك ، وتلك هي نظرية السير ادوارد تيلور فقبائل الماوري تمارس القرعة ، وقبائل البولونيز يدوّرون الجوز لاكتشاف اللصوص بين ظهرانيهم . وفي جزر تورجا يدورون جوز الهند لمعرفة هل سيشفى المريض الفلاني أو لا اذا مالت الجوزة ناحية أو أخرى ، أي أن تلك الالعاب البدائية قد استخدمت للعرافة واستكشاف المجهول ، فأصبحت الخطوة الاولى للمقامرة أيضا ، لان نتائج المقامرة مجهولة وغامضة ومثيرة .

وهكذا نجد الى أيامنا هذه أن ورق اللعب (الكوتشينة) يستعمل لقراءة البخت كما يستعمل في مختلف ألعاب القمار ، إن خلط الورق يوحي للفرد المعاصر بالفكرة البدائية المتوارثة بأنها تتم بأمر أو بفعل قوى غير طبيعية تتحكم في النتائج ، والسباق والمواجهة بين المقامرين ليس مجرد صراع قوى عمياء ، بل هو صراع بين الاقدار التي يتعلقون ويؤمنون بها ، فالمقامرة حلم بالسيطرة على المستقبل ، وهو حلم بدائي . .

ومن طريف الافكار البدائية المتعلقة بالمقامرة وسحرها ، انها استعملت كعلاج للمرض العقلي الذي أصيب به الملك شارلس السادس ملك فرنسا عام ١٣٩٢ م .

والمقامرة على أنواع ثلاثة :

١ ـ الالعاب التي تعتمد على مجرى الصدف البحتة ، كلعبة الروليت والنرد .

٢ ـ الالعاب التي تجمع بين الصدف ومجهود الحذق والخبرة والحدس وقابلية الخدعة ، ومنها ألعاب الورق من بوكر وبريدج وسباق الخيل .

٣ ـ الالعاب التي تعتمد على التفكير العميق ، كالشطرنج . ويصر بعض الباحثين أن الشطرنج لايخلو من صدف وحظوظ دقيقة غير منظورة .

العوامل النفسية للمقامرة :

كل انسان يمكن أن يقامر يوما ما ولايعد مقامرا بالمعنى الحقيقي للمقامرة ، فقد يشتري انسان بطاقة يانصيب خيرية ، وقد يربح أو يخسر ، ولكنه مقامر

عابر ، وكل انسان يمكن أن يشترك في لعبة وقتية للتسلية وقضاء الوقت ، أما المقامرة الحقيقية فتتضمن عنصر المخاطرة والامل بالربح من خلال عملية تتحكم فيها الصدفة أو التلقائية أو شيء من الخبرة والقوانين الحسابية ، وهذا لاينطبق على الصفقات التجارية وعمليات البيع والشراء التي يمارسها ملايين الناس لان الربح أو الخسارة نتائج طبيعية لها .

أما المقامر القهري - أي الذي يندفع الى المقامرة اندفاعا قهريا جنونيا - والمقامر المريض والمقامر المعضلة فهو في الحقيقة انسان مريض بالعصاب وهو انسان يعيش اللعبة واثارتها ، ويحارب الشك والغموض بالامل الابدي بالربح . فالمقامر يشعر بما يشبه اليقين أنه سيربح ، فاذا خسر مرة ، فأمامه جولات ومناسبات . .

والمقامر المريض يتوق الى الانتحار البطيء عن طريق المقامرة . ومحاولات الانتحار بـ « اللعبة » الخطرة « الروليت الروسية » هي مقامرة مع الموت عن طريق استخدام آلة للموت هي المسدس .

والمقامر ، كالمدمن على الخمر . . يؤكد ذاته بالهزيمة من الواقع على مائدة القمار . وهو يشعر بذكائه وحذقه أيضا ، وبقدرته على الربح ، وبأن الحياة بأجمعها مجرد مقامرة ! فهو كالمدمن أيضا يتوق الى الانتحار البطيء .

والمقامر ثائر ومنتقم . . يثأر من أعدائه - الوهميين أو الحقيقيين - بتحديهم في القمار ، فالربح يجعله عظيما والخسارة تؤذي أعداءه ، ويقول علماء النفس إن المقامر يضمر العداء لوالديه ، وهو يقامر تحديا لسلطتهم واذلالا لمعنوياتهم . وهذا السلوك يرجعه الى الشعور بالقدرة الجبارة الطفولية أو بجنون السيطرة على كل من يقف في سبيله .

ويفسر بيرجلر اصرار المقامر القهري على اللعب بأنه اندفاع لاشعوري نحو الخسارة في « لا شعوره » ، والخسارة اللاشعورية هي سلاحه لتحطيم ذاته (انتحار بطيء) ، أو تأكيد ذاته (بالرفض والتحدي لسلطة الوالدين أو من يمثلهما أثناء الطفولة) .

والمقامر العصابي لايريد اكتناز المال ، انه بالحقيقة يتمتع بنشوة اللعب . . ويريد أن يخسر لا شعوريا ، وهو يخسر بالفعل في نهاية المطاف . وهذا هو عنصر الماسوشية في المقامرة - أي الاستئناس بالاذى والالم - والمقامر يتعامل مع

الصدف ويزدري اللعبة قبل المُثُل أو الحب أو أية هواية مجدية أخرى . فالمقامر اذن متفائل ظاهريا ، ولا يتعظ بالخسارة لانه يحب الخسارة باطنيا ، وخسارته اليوم أو ربحه لا تعني لديه أي شيء : فهناك الغد . . وبعد الغد . كان أحد المرضى يراجع طبيبه النفساني ثلاث مرات في الاسبوع للعلاج . ورأى مرة اثنين يقامران في عربة القطار ، وكان أحدهما يغش في اللعب ويربح . وعلى الرغم من تأكد صاحبنا من ذلك فقد أغراه اللعب واستأسد فيه الداء فلعب مع الغشاش ذاته . . وخسر بالطبع .

وعلى هذا الاساس ، لا يتوقف المقامر اذا ربح ، وهو البرهان على أن المقامر لايمكن أن يصبح ثريا عن طريق القمار . ويقول مدير كازينو فرنسي شهير للمقامرة : « لولا استمرار المقامر على اللعب ، لما ربحنا نحن أي شيء اذ أن ربحنا نستمده من عدم توقفه عن اللعب سواء ربح أو خسر . . » .

والمقامر يشعر بالاثم الشعوري أو اللاشعوري . واستمراره على الخسارة أو تحطيم الذات هو جزاء شعوره بالخطيئة وعقاب لميوله العدوانية . وهكذا ، فالمقامر يجمع بين اللذة والالم ، بل هو يبحث عنهما في اللعبة ، واثارة اللعبة ونتائجها هي مزيج من الاثنين : اللذة . . والالم وهما وجهان للمرض أو ثنائيته .

والمقامر ثائر على والديه اذا كان من الاطفال المهملين المكروهين ، أو هو ثائر على « الاقدار » حتى لو كانت ثورته بحجم عاصفة في فنجان . لكنه يتحدى القدر لاشعوريا ، أو كما كان يعترف مقامر ديستوفسكي : . . كانت رغبتي الغريبة أن أتحدى القدر . . أن أوجه لطمة على أنف القدر ، وأبرز له لساني استهزاء ! »

وأخيرا ، فالمقامرة ليست مهنة . . انها مرض نفسي خطير . ان درجة « الادمان » على المقامرة ترويها لنا قصة قديمة للكاتب هوفمان في سنة ١٨١٩ ، أسماها (حظوظ المقامر) : كان أحد المدمنين على المقامرة قد تركها بعد جهد جهيد ، الا أنه عندما قارب الموت ، وأثناء زيارة القسيس له قبل مماته . . كان أقرباؤه يلحظون باستغراب تلك الحركات اللاارادية التي يقوم بها وهو في حشرجة الموت ، وكانت في الحقيقة حركات توزيع ورق القمار على المائدة مصحوبة بتمتمة من اصطلاحات اللعب وتعابيره ! . .

قوانين المقامرة :

منذ أدرك الانسان مخاطر المقامرة وضع لها القوانين التي تضبطها . وارتبط القمار بالشرف والمكانة ، فالذي يخسر عليه أن يدفع « دين الشرف » ، ومن لا يستطع الدفع أو التعويض ، فقد أجاز له القانون البروسي ـ مثلا ـ أن ينتحر .

والمفروض في القانون أن يحمي صحة المجتمع العقلية والاقتصادية ، والقانون المثالي هو الذي يحقق تلك الحماية ويجعل الألعاب المعروفة مجردة عن عنصر المقامرة والاجرام وذلك بالتحكم في الارباح ، ويجعل الالعاب تتم في وسط محترم ، ويجردها من الجشع والاستغلال من قبل المحتكرين .

ونرى المحاولات الاصلاحية منذ القدم في بعض المقامرة . ففي انكلتره ، لم يسمح هنري الرابع بالمقامرة بالورق الا في أيام عيد الميلاد ، ولم يسمح بخسارة تزيد على جنيه واحد ، ولم يسمح للناس العاديين بالمقامرة اذا كانوا أقل درجة من الفرسان !

وتمنع القوانين الحديثة المقامرة قبل بلوغ سن الثامنة عشرة . والحقيقة أن الاطفال قلما يقامرون قبل بلوغهم سن البلوغ . وتخاطر النساء بأقل كمية من المال . أما الفتيات فيفعلن ذلك بعد الزواج .

والمقامرون أصناف طالما أن كل انسان يمكن أن يقامر يوما ما في حياته :

١ ـ المقامر العصابي المريض ، وهو المقامر القهري ، الذي شرحنا تفاصيل انفعالاته وميوله الشعورية واللاشعورية .

٢ ـ المقامر العرضي : الذي لا يمارس المقامرة الا عرضا للتسلية أو قتل الفراغ ، ثم يرجع الى أعماله الجدية السابقة .

٣ ـ المقامر المحترف ، وهو الذي يتجنب المخاطرة لانه يريد الربح لا المتعة ، يرتزق من المقامرين ويستغل المقامرة ، ومن هؤلاء أصحاب ملاعب القمار وبياعو بطاقات اليانصيب والمتسكعون في ميادين السباق وأصحاب مشاريع اليانصيب الخ .



علاج المقامرة :

وعلاج داء المقامرة ليس من الامور اليسيرة . وهو يتطلب تدخل القانون الذي يجب أن يحيل المقامرة الى لعبة بريئة مجردة عن الربح واستغلال المحتكرين ، كما ذكرنا ، وهذا من واجبات الدولة بالطبع .

ويأتي دور الهيئات والمؤسسات الاجتماعية الاصلاحية التي تقوم بأدوار التوعية والاعلان ضد المقامرة ، مع ابداء المعونة والعطف « للمقامرين التائبين » . ولذلك تشكلت جمعيات غير علنية للمقامرين ، تضم الاعضاء المقامرين التائبين وتشعرهم بروح الجماعة الهادفة للخير ، وتهيء لهم الاجتماعات والحفلات الهادفة والمسلية وتحارب فيهم الملل والخواء ، وذلك على غرار خط جمعية التائبين عن ادمان الكحول والمخدرات غير العلنية أيضا .

كذلك يقوم علم النفس الحديث بمعالجة المقامرين العصابيين والقهريين باحدى العلاجات النفسية الدارجة ، وهي

أ ـ التحليل النفسي الفردي للمصاب الواحد .

ب ـ التحليل والعلاج النفسي الجماعي لجماعة من المقامرين .

ج ـ العلاج السلوكي التنفيري ، أي « بتعليم » المصاب بالمقامرة أن « ينفر » من المقامرة ويكرهها بوسائل نفسية خاصة .



المعقول واللامعقول في الجنون !

في معرض الهزل والتسلية تضيع الكثير من الحقائق ، وفي مجال النفور والضجر ينكمش العلم وينزوي . وتكون النتائج وخيمة لايلتاع لها ويكتوي بنارها الا من يمر بالتجربة أو يصاب بمرض أو ينغمس في معالجته بحكم واجبه أو مهنته . وقد ذكرت الهزل والتسلية بقصد والحاح لاسباب معروفة قد تمر دون التفات جدي لمغزاها وأضرارها .

ففي معرض الفكاهة تلجأ الصحف والمجلات العربية ، وبعض الناس من صانعي النكات والكاريكاتير الى ابتكار قصص وطرائف بغرض التسلية وارضاء غرائز الجمهور لكنها غير واقعية ومن نسج الخيال والتصور وكأنها ممكنة الحدوث . والنكتة التالية تصور ذلك بجلاء :

صعد مجنون هارب من المستشفى منارة بقصد الانتحار ، وحار جمهرة الناس في اقناعه بالعدول عن ذلك . . الى أن جاءهم طبيب المستشفى بمجنون آخر ، فما كان منه الا أن نادى المجنون الاول قائلا : « اذا لم تنزل فسأقص المنارة بالمنشار ! وسرعان ما نزل المجنون الاول راكضا طائعا هلعا ! ! . .

حكاية طريفة دون شك ـ ونكتة حارة ومسلية . . أليس كذلك ؟ ؟ . .

العربي العدد ٢٣٠ يناير ـ كانون الثاني ١٩٧٨ م ..

أما أنا فأقول بأنها حكاية « باردة » مصنوعة وموضوعة من قبل شخص عاقل لادخال السرور الى قلوب الناس على حساب المساكين التائهين ، فما أبعدها عن حقيقة تفكير من يُدعون بالمجانين ، وان دلت على شيء فعلى عدم تفهم جمهور كبير من الناس ماذا يجري في عقل المصاب وماذا يفكر به فعلا . وهذا ما ينطبق على معظم حكايات المجانين .

وسأتناول في معالجتي هذه القضية « المرض العقلي » ونظرة الناس اليه ، وموقف المجتمع والاسرة والاقرباء من مريضهم لما في هذه النظرة والاتجاه من تأثير حيوي على جهود أطباء النفس في العلاج والوقاية .

الجنون . . . والمرض النفسي :

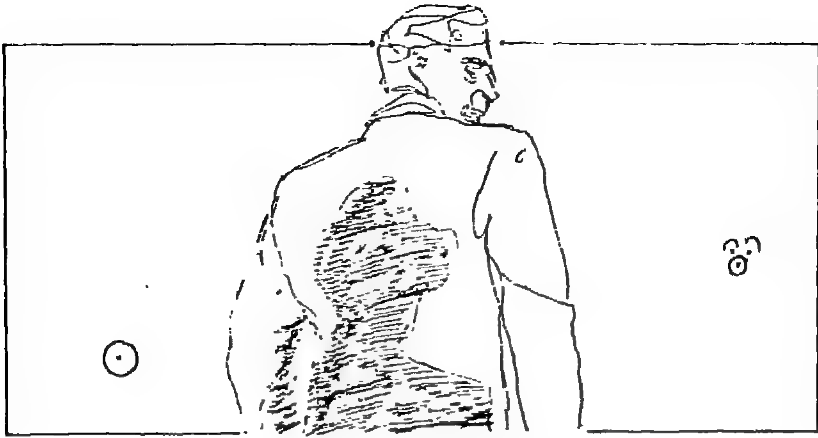
الجنون في الحقيقة ليس الا نوعا من الاضطراب النفسي بنظر الطب النفساني .

وللاضطراب النفسي درجات وأصناف ، لذلك يؤثر بعض العلماء تقسيم الاضطراب النفسي الى فصيلتين كبيرتين :

أ ـ الامراض النفسية (العصابية) ، وهي التي ينظر اليها الجميع على أنها اضطرابات خفيفة هينة العلاج . . « سليمة السمعة » اجتماعيا . .

ب ـ الامراض الذهانية (العقلية) ، والتي تعتبر مرادفة للجنون أو العته . . العميق الاثر والاصعب علاجا . . و « السيىء السمعة » . اجتماعيا . . .

وعند الاختصاصي بالطب النفساني ، لا فرق جوهريا بين المرض النفسي والمرض العقلي من حيث الاسباب ، فالنفس هي العقل . . والعقل هو النفس . . ولا وجود لنفس وعقل في أي عضو من أعضاء الجسم عدا الدماغ . فنحن نشعر ونحب ونغضب ونستجيب ونفكر ونمرض بعقولنا . ومع ذلك فان المجنون كما هو متعارف عليه هو المريض العقلي (المصاب بالذهان) وأعراض الذهان تختلف دون شك عن أعراض العصاب النفسي بالرغم من أنها قد تشترك في كثير من العوامل فتتشابه وتختلط بين الاثنين بصورة كبيرة . وما يمكن التأكيد عليه هو أن الجنون أشد حدة وعمقا وتأثيرا في تغيير سلوك الانسان وتفكيره وحياته ، وقد ينشأ أحيانا عن اصابة عضوية في الدماغ .



ما هو المرض النفسي (والعقلي) ؟

يمكن تعريف المرض النفسي بأنه : حالة من رد فعل ومجابهة لشدائد الحياة ، وآلام الذات . فالمرض النفسي هو استجابة غير طبيعية من الفرد تجاه ظروف وشدائد تقع عليه أو تحدث فيه أو هو « الحل الانسب » أو « الموقف الملائم » الذي يلجأ اليه المريض تجاه الصعاب ولم يوفق الى غيره .

ونحن نعرف أن الانسان السوي المعافى يواجه دائما مثل هذه المصاعب ويستجيب لها . واستجابته هي « تكيف ناجح » يخلو من أعراض الامراض النفسية والعقلية ، بينما المريض النفسي يتكيف ويستجيب بشكل وصيغة هي المرض ذاته ، لانه لم يوفق الى التكيف الاسلم والاصح . ويرجع سبب عدم التكيف ـ أو سوء التكيف والمرض ـ الى عوامل كثيرة :

بيولوجية ـ وراثية ، ومحيطية ـ اجتماعية ، وثقافية ـ خارجية .

ويمكن تقسيم كل عامل الى عدة عوامل ثانوية . وكل من المرض النفسي والعقلي يعني الاخفاق في التكيف مما يؤدي الى اضطراب التناسق والانسجام الذاتي . . . أو الانسجام مع الآخرين . . أو مع المجتمع . . مع اختلاف في الحدة والعمق والدرجة ، وتكون النتيجة شقاء الذات . . أو شقاء

الآخرين . . أو الاثنين معا ، هذا عدا ما يصاحب المرض من شـذوذ أو تحد للعرف أو مخالفة للمعايير والقوانين السائدة .

التفكير في المرض العقلي :

من المفيد جدا أن نعرف كيف يفكر المريض العقلي . ولا أدعي أن الطب النفسي قد كشف بجلاء تام التسلسل المنطقي في تفكير المريض ، الا أن الشيء الاكيد هو أن تفكير المريض يستمد أصوله ومادته واتجاهه من تفكير الانسان العادي أو بالاحرى من تفكيره هو وحياته قبل مرضه . فلا شيء غريبا وجديدا فيه الا الاسلوب والصيغة المستحدثة .

وليس من العسير تفسير الاسلوب الجديد أو فهمه بالرجوع الى تاريخ حيـاة المريض وما صادفه من شدائد وعقبـات سواء بـالتحليل النفسي أو بتسجيـل وتدقيق لتطور حياته العاطفية وعـلاقته مـع والدتـه وأفراد أسـرته وأقـربائـه وأقرانه . . ومع مواطنيه . وبالدراسة النفسية والبحث الاجتماعي يمكن وضع الاعراض الغريبة أو الشاذة في أطرها المناسبة وايجاد التفسير المقبول لها .

فالمريض بالشك والاوهام والعداوات انما يشعر بذلك نتيجة سلسلة من تجارب وظروف مرت به فاستجاب لها بطريقة شاذة لا يلجـأ اليها غيـره من الاسوياء . والذي يشعر أنـه بدون اسم وشخصيـة وكيان ربمـا يتنكر لـذاته ويمقتها ، أو ربما يفقد كل أثر لارادة ذاته وحدودها . . والذي يؤمن أن عقله قد ذاب وباطنه خاو ربما لانه يرى الآخرين قد طغوا عليه فمحوا كل شيء حيوي فيه . . والذي يعتقد أنه القوي الجبار أو الملك أو القائد الذي يأمر فيطاع وينهي فيستجاب له ربما لان شعوره السابق بالنقص والضآلة دفعاه الى رد فعل شاذ من جنون العظمة . . وهكذا ، حتى حركات الايدي والاصابع وقسمات الوجه ولمعان العيون هي رموز ودلائل لها مغزى ومنشأ لمن يريد أن يسبر غور النفوس قبل السخرية منها . . اذن ، فالتفكير لدى مرضى العقـول هو أشبـه بتفكير العقلاء مع فارق في التسلسل والشدة والنوعية والعمق والصراحة والاسلوب .

فالانسان العاقل ـ الاجتماعي ـ لا يبصق على الارض ولا ينزع ملابسـه أمام الاخرين لاعتبارات كثيرة معروفـة ، لكن المريض العقـلي وصل الى مـرحلة

أصبح فيها لسان حاله وموقفه يقول : « أنا أحتقر هذا المجتمع الزائف الظالم . . انه يستأهل البصق . . ولا يستحق التردد والخجل . . وأنا هكذا دون ملابس . . فليخسأ المنافقون والمراءون . . فلأضحك كما أريد . . ولأتكلم بصوت عال مسموع . »

يمكن القول اذن ، وببساطة أن المريض العقلي قد وصل مرحلة جديدة من توازن القوى النفسية ومن المعادلات الجديدة ومن القيم الخاصة بحيث أنه يقنع بالعيش في عالم خاص وسط عالم العقلاء . أما عند المشاهد السطحي فان عالم الجنون هو مجرد فوضى وأعمال مضحكة ومهازل تسلية . أما الدارس المتعمق - والطبيب النفساني - فيدرك أن عالم الجنون يتضمن التفكير الرمزي ذا المغزى والمعنى . . وأن ليس فيه ما يضحك بل ما يدعو للاسى والدرس والعلاج . والانتاج الفني للمصاب بمرض عقلي يعكس أيضا جانبا من تفكيره . . واللوحات الغريبة أو السريالية للفنانين الاعتياديين كثيرا ما تشابه لوحات مرضى العقول . . وبمعنى آخر إن حلقات الوصل في الانتاج الفني لاتزال موجودة . . وأن بالامكان فهمها أو تحليلها . .

دور المجتمع :

ان تفهّم الناس لمأساة المريض العقلي ومعاناته ضروري جدا . بل هو دليل ومؤشر لمدى تحضر الانسان وحبه للبشرية وايمانه بالمباديء الاخلاقية السامية وبالعلم . فأين الحضارة والانسانية لدى قوم يعاملون المريض العقلي بربطه بالسلاسل وتجويعه وجعله فريسة الظلام والرعب أو وضعه في جهاز دوار يجلب له الدوار والغثيان والانهيار . وماذا يبقى للانسان من كرامة اذا كان المرض العقلي سلاحا تهديديا يشهر ضد الانسان للاستيلاء على ميراثه وطمس حقوقه وأفكاره ظلما وبهتانا ؟؟ . .

كان ذلك في القرون الغابرة . . أما الان فان دور المجتمع والناس في معاملة مرضى العقول قد تغير ، وتبدل وجه المستشفيات العقلية الكئيب الرهيب ، وتحولت دور الشفاء الى ردهات اعتيادية داخل المستشفيات العامة ، وأصبح المريض العقلي يتناول علاجه ويرجع الى عمله ويعيش في داره وبين



أفراد أسرته دون فرق . وأصبحت سياسة « الباب المفتوح » هي السائدة في أنظمة المستشفيات العقلية ـ أي أن يدخل المريض المستشفى بمحض اختياره ويخرج منه متى ما أراد دون حجر وقيد الا بقرار من لجنة طبية ولفترة معينة وبشروط وظروف خاصة أهمها الخطورة على النفس أو على الآخرين . . .

ولكن هل ندعي أن هذه المرحلة قد بلغت الكمال المتواضع ؟؟ . كلا ، اذ لا نزال نلمس ردود فعل عنيفة من الاهل والاقارب ومن الناس تجاه كل ماهو مرض عقلي . والنكتة التي أوردناها في أول المقال هي واحدة من آلاف النكات التي أطلقها أولئك السطحيون على المجانين بكل قسوة وعدم اكتراث .

دور الاسرة :

ولعل دور الاسرة في المرض النفسي والعقلي من العوامل الخطيرة المهمة التي تحظى باهتمام الطب النفسي . وتتوزع هذه العوامل ونـواحي ارتباطهـا بالمرض النفسي على ما يلي :

أ ـ مسببات المرض .

ب ـ واستمراريته أو ازالته .

ج ـ وعلى نجاح العلاج وفشله . .

فالصفات الوراثية ، ثم التربية والبيئة تتدخـل في تهيئة الفـرد للمرض النفسي أو ابرازه . . أو في زيادة حدته ، فقد نجد الاستعداد لمرض انفصـام الشخصية (الشيزوفـرينيا) في شخصـين ، الا أن أحدهمـا يستمر في حياته الطبيعية دون أثر للاضطرابات والمرض ، بينما سرعان ما تظهر أعراض المرض في الآخر بسبب أساليب تربيته وعلاقته مع والديه وأفراد أسرته .

ولو افترضنا ظهور المرض العقلي لـدى شخص ما ، فـان ردود الفعل ومشاعر أفراد أسرته ووجدانها ستتدخل في مسار المرض وشدته . فـالأم غير المتفهمة والاب اللامبالي أو المشاكس ، والجهل والقسوة يعـرقلون الشفاء أو ينقلون المرض الى حالة الازمان والاستمرار .

أما في المرحلة الأخيرة ـ أي عندما يكون المريض قد عولج بصورة جيدة ثم عاد الى بيته وأسرته ، فإن موقف الاسرة سيقرر مصير المرض وسيره دون شك ، وهو مانريد التحدث عنه : فقد وجد أن مواقف الاسرة يختلف بعضها عن بعض بصورة ملحوظة ، فهناك الاسر المعادية الغريبة الأطوار التي تضع العراقيل ـ بعمد أو بغيره ـ أمام تحسن مريضها وكأنه قد أبلَّ من زكام بسيط فلا تكترث لما هو فيه ، وهناك الاسر الواعية المتفهمة المدققة التي تجند نفسها لتكون بمثابة هيئة تمريضية عالية الكفاية تتلقى التعليمات من الطبيب المعالج بكل طاعة وتقدير .

وهكذا نجد أن ما يبنيه الطبيب النفساني في العيـادة والمستشفى يتوقف مصيره على ما تقدمه الاسرة من اساءة أو خدمة ، وليس من الغرابة أن نعرف أن بعض الاسر في العالم الغربي وبعض المؤسسات الخيرية والحكـومية هي أكـثر

خدمة وعطفا وتفهما للمريض من ذويه أنفسهم . وليس من الغرابة أيضا أن نعرف أن هنالك أسرا تستقبل المرضى العقليين الغرباء بعد اكمالهم علاجهم فتؤويهم عندها للعناية بهم مقابل أجور زهيدة ، وتقدم تقريرها للطبيب النفساني بين فترات معينة عندما يزورهم بصورة دورية ، مما يدل على مدى الحنان والتعاطف والتكاتف الانساني .

الحكمة . . . والنتيجة :

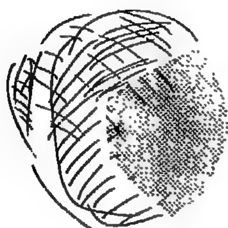
ان هذا المقال دفاع ونداء . . . . دفاع عن الانسان الذي يقع فريسة المرض ويحتاج الى فهم ورعاية من قبل ذويه ومجتمعه ، ونداء الى من يتمتعون بصحة العقل الى التروي والتواضع « والتعقل » عند تعاملهم مع مرضى العقول . فالمسألة ليست بالسهولة الظاهرة ولا بالمتعة العابرة ، ولا بالتغاضي أو الغضاضة ، لان هناك الأدلة الكافية الشافية بأن كل فكرة وحركة يقوم بها المريض العقلي لها معنى ومغزى وأصل وهدف .

ومن علماء النفس وفلاسفته من يعتبر المرض بحد ذاته مجرد « موقف » حر من ظواهر الحياة وأمورها (ومنهم الوجوديون) ، وهنالك آخرون ممن يجازفون ويغامرون ـ بجرأة فيقولون إنه لا وجود لمرض عقلي ـ مثل زاس وجماعته في الولايات المتحدة الامريكية . ولكن الفكرة التي يجمع عليها كل علماء النفس والاجتماع أن المرض العقلي ليس فكاهة ولا تسلية ولا هو بالفوضى واللامعنى . . بل إنه يحتاج الى بذل كل الجهود والدراسات لمعرفة أسبابه وعلاجه .

وهنالك من المرضى الذين قدموا للطب النفسي خدمة جُلًى عندما اكتسبوا الشفاء وسجلوا كل خواطرهم وذكرياتهم أثناء المرض فأفادوا أطباءهم ومجتمعهم ، وأذكر منهم على سبيل المثال المريض (كليفورد بيرز) الذي كتب مؤلفا ضخما يحوي كل ذكرياته عن جنونه وعن أوضاع المستشفيات العقلية التي تنقل بينها في أمريكا . ثم حمل بعدئذ لواء دعوة اصلاحية لتحسين أوضاع المستشفيات العقلية ، وليكن معلوما لدى الجميع أن المريض العقلي ليس بالابله الذي تمر به الاحداث وهو ساه عنها ، لان عقله يسجل كل شيء . . فلا ينسى

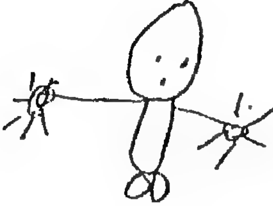
اهانة ولا يغفرها . . ويعرف الجميل ويدرك الحنان والعطف . .

ان الانسان الذي كتبت عليه الحياة وأصبح عضوا في المجتمع يكتسب كل الحقوق التي تتطلب الحفاظ على انسانيته وعقله ودوره المفيد المنتج في المجتمع . فالسعادة ملك مشاع للجميع ومن حقوق البشر . . ومن الاعتداء على تلك الحقوق السخرية من مرضى العقول أو عدم الاكتراث بهم أو القسوة عليهم أو استغلالهم . . .





طفولــة مُهشّـمَـة !



يكاد يجمع غـالبية البشـر على أن أعـذب مراحـل حياتهم هي مـرحلة الطفولة ، لما تتضمنه من رعاية وحنان من الوالدين وخفة المسؤولية وانشراح اللهو والغبطة في اللعب ولذة الانطلاق والصفاء ، فهي اذا ما قورنت بمراحل المراهقة والشبـاب والكهولـة والشيخوخـة فاقتهـا جميعا بتلك المـزايا وبـزتها بذكرياتها الخلابة الراسخة في ذهن الانسان .

على أن طفولة البشر ليست سواء ، فهي عند البعض مزركشة سعيدة ، وعند الآخرين بغيضة ثقيلة ، وعادة مـا نجد أنـاسا كـانت طفولتهم خـاطفة قصيرة ، أو باهتة جافة ، أو قاتمة شقية ، وتتجمع تلك الامثلة المحزنة لدى علماء النفس والتربية والاجتمـا ع لتشكل ظـواهر خـطيرة تستـوجب الدرس والمعالجة . وبين هذين النقيضين نجد نماذج متفرقة لطفولة خاطفة لامعة ليس فيها من مثلبة الا سرعتها وجديتها وصرامتها . .

العربي العدد ١٩١ اكتوبر ـ تشرين الاول ١٩٧٤م

طفولة كبيرة :

قال المؤرخون عن الفيلسوف الاقتصادي والكاتب الانكليزي الشهير (جون ستوارت ميل) (١٨٠٦ - ١٨٧٣ م) ، « بأنه الانسان الذي لم يعرف معنى الطفولة » . والسبب بسيط جدا ، لأنه باشر طفولته واستنفدها في أعمال تخص الشباب والرجال . فقد حرم من الاختلاط مع الاطفال الاخرين ، وتولى تعليمه والده المفكر المعروف في مسكنهم الخاص الى أن بلغ الرابعة عشرة من العمر . والذي حدث في تلك السنوات ما يلي :

في الثالثة من عمره ، بدأ يتعلم اليونانية ، حتى اذا بلغ التاسعة كان يدرس ويفهم روائع الفكر اليوناني القديم ويقدم تقريرا يوميا الى والده عما قرأه .

وفي السادسة والنصف كتب بوضوح وسلاسة عن تاريخ روما .

وفي السابعة قرأ لافلاطون .

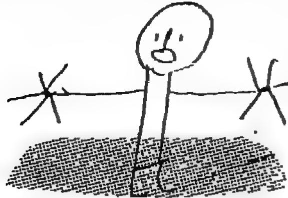
وفي الثامنة درس اللاتينية . وقبل نهاية السنة كان منهمكا في قراءة الادباء اللاتين . ولم يهمل الرياضيات إذ كان منهجه الهندسة والجبر .

وفي التاسعة أضاف إليها هندسة المخروط والكرة ورياضيات نيوتن .

وفي العاشرة ، كان أسلوبه بالكتابة ينم عن البراعة والالمعية .

وفي الحادية عشرة كتب ملخصا لبلاغة الفيلسوف أرسطو ، وكتب متنوعات في النثر والتراجم والتاريخ . وقبل الثانية عشرة بدأ يساعد والده في تصحيح مسودات كتابه عن تاريخ الهند ، ومن ثم انطلق الى كتب الاقتصاد والسياسة .

وليست تلك الطفولة العبقرية بالظاهرة المريضة أو المنحرفة ، لكنها تعتبر طريفة وغريبة بالنسبة الى طفولات الاخرين . وكل ما نجيزه لأنفسنا هو التعليق عليها بأنها « طفولة مختزلة » لقصرها وسرعتها وخلوها من المرح واللهو البريء البسيط ، وأنها لم تكن طفولة محرومة أو مجردة من الحنان والعطف الابوي .



طفولة شقية :

وعلى الطرف الآخر من هذه الظاهرة تتجمع سحب سوداء ودلائل متجهمة ـ وخاصة في العقدين الاخيرين ـ تشير الى أن مجموعة كبيرة من الاطفال يتعرضون للألم والشقاء من قبل ذويهم ليس بسبب الحرمان العاطفي فحسب ، أو لصعوبات الحياة أو الفقر أو فقد أحد الابوين ، بل لأنهم يتعرضون الى الضرب الشديد والاذى الجسمي فوق كل ذلك .

وقد تكشفت هذه الحقائق المخزية تدريجيا عندما لاحظ الاطباء في مراكز الاسعافات الاولية وأطباء الاطفال والجراحين بأن بعض الاباء والامهات يجلبون أطفالهم للعلاج بسبب اصابتهم برضوض أو جروح أو كسور مدعين أنها كانت نتيجة حادثة عارضة (كالسقوط أو الارتطام) ، وبعد الفحص الدقيق لا تحصل القناعة الكافية لدى الاطباء بأن الحادثة عرضية وتحوم شكوكهم حول احتمال تعرض الطفل الى ضرب متعمد ، ولا يعوزهم الا الدليل الدامغ أحيانا بسبب نكران ذويهم .

وضرب الطفل واساءة معاملته ظاهرة متكررة عند الاباء والامهات العنيفات بحيث أن البروفسور (هنري كمب) في أمريكا أطلق على الطفل المضروب اصطلاح : « الطفل المهشم » ومنذ ذلك الحين بدأ الاطباء في تدقيق حالات الاطفال المصابين . وقد بلغ العنف والقسوة الى حد القضاء على حياة الطفل . فمن ٧٤٩ طفل مصاب وجد باحثون أمريكيون أن ١٠٪ منهم قد لقوا حتفهم نتيجة الضرب المتكرر ، ويقدر في بريطانيا أن ما لا يقل عن ثلاثة آلاف طفل يتعرضون الى اصابات متنوعة في كل سنة ، وأن أربعين طفلا (٤٠) يموتون قبل بلوغهم عاما واحدا من عمرهم بسبب الاهمال أو العنف .

والمسألة ليست بالبساطة التي قد تبدو لنا ظاهريا ، فاثبات « الجريمة » والاعتداء يحتاج الى أدلة ، وغالبا ما تفشل الدعوى المقامة على الوالدين في المحاكم لهذا السبب ، كما أن سياسة العقاب لا تجدي مع الوالدين لأن المعضلة تحتاج الى معالجة نفسية اجتماعية لها ، ولذلك فان حوادث الاعتداء على الاطفال لا تصل منها الى المحاكم الا نسبة ضئيلة تقدر بـ ٥٪ من المجموع الكلي .

وقد أشارت دراسات حديثة الى أن أغلب الاطفال المعرضين للاصابة المتعمدة من قبل ذويهم تتراوح أعمارهم بين الثانية والرابعة من العمر ، وأن هذه الحالات في تزايد ـ وربما بسبب الحذر والتدقيق اللذين كشفا عن المستور منها ـ وقد بلغت في (١٩٧٣) ٤٦٠٠ حالة في انكلترا فقط .

نوع الاصابات :



قد يندهش القاريء اذا عرف نوع الاصابات التي يتعرض لها الطفل المضروب فهي واحدة أو أكثر مما يلي : كسور في العظام ، سحجات وكدمات وخدوش ، حروق على القفا بالكهرباء والسجائر ؛ كسور في الجمجمة ، تمزق في الكبد ، انفجار في الامعاء والمعدة أو التسمم .

وأورد الحادثة التالية كمثال على ذلك :

« طفل رضيع عمره ثلاثة أشهر ونصف أدخل الى ردهة الاطفال لاصابته بنزف دماغي تحت أغلقة المخ أدى الى قلة السمع والرؤية والى تخريب أنسجة المخ وثبت أنه تعرض للأذى من قبل والدته .

وقد توفيت الطفلة (ماريا كولويل) في مدينة (برايتون) الانكليزية سنة (١٩٧٤) بسبب الضرب العمد وقد تساءلت احدى الممرضات الرقيقات مرة : « ترى أي صنف من الناس يمكن أن يرتكب هذا العمل الشنيع ؟ » ، وهو سؤال يراود كل انسان عطوف .

نوع الوالدين :

أجريت دراسات متعددة ومتفرقة لمعرفة الطبائع والشخصيات وأمراض الآباء والأمهات لهؤلاء « الاطفال المهشمين » ، وظهرت نتائجها متقاربة ومتفقة على أن ذويهم يعانـون من اضطراب نفسي أو عقـلي بشكل من الاشكـال . فمثلا : ان حوالي ٣٠ ـ ٦٠٪ من هؤلاء كانوا أنفسهم عرضة للضرب والاذى من قبل ذويهم نتيجة التهيج والغضب أو أثناء تناولهم الخمر ، بل إن المثال الذي أوردناه سابقا كشف عن أن الضرب والاعتداء والقسوة كان عادة مكرورة في خمسة أجيال في تلك الاسرة وكأنها صفات متوارثة أو طقوس لا بد من أدائها ، وهي بالطبع لا تنتقل بالوراثة بل تدل على أن القسوة تولد القسوة والعنف يؤدى الى العنف .

كما أظهرت الابحاث والدراسات النفسية لذوي الاطفال ان معظمهم عاجزون نفسيا وغير ناضجين عـاطفيا وينقصهم الصبـر والتحمل والشعـور بالمسؤولية . وقـد لوحظ أنهم عـادة ما يكـونون عـديمي الخبرة ومن طبقـات اجتماعية دنيا ، أو أنهم فوجئوا بالاطفال قبل الاستعداد الفكري والعـاطفي لتربيتهم ورعايتهم ، ومن دراسة احصائية اتضح أيضا : أن حوالي ٦٥ ـ ٧٥٪ منهم يعانون من اضطرابات الشخصية .

وأن حوالي ١١ ـ ٢٩٪ منهم لهم سوابق جنائية مسجلة لدى الشرطة .

وأن ٥٠٪ من آباء غير اجتماعيين (سايكوباثيين) **Psyhopaths** .

وأن ٤٨٪ من الامهات عصبيات يعانين من قلق مزمن ، كما أن نسبـة كبيرة منهن من ذوات الذكاء المتدني أو تحت الوسط .

وتدل كل هذه الاضطرابات النفسية على عدم توافر الكفاية والقابلية في الوالدين لتربية الطفل وتحمل صراخه أو استيقاظه في الليل أو مرضه أو صخبه أثنـاء اللعب . والخلل واضح في هؤلاء الآبـاء والأمهات كـما هو واضـح في الاجداد . .

ويبدو أن جهل الـوالدين وانخفـاض ذكائهم وتسـطح عواطفهم وقلة خبرتهم وتربيتهم السابقة ووجودهم في مجتمع مادي حاد المنافسة (وهو المجتمع الغربي) قد دفعهم الى معاملة الطفل وكأنه شخص بالغ ومعاد .

ان ظاهرة ضرب الاطفال الى هذه الحدود القظيعة قليلة الحدوث في البلاد العربية على الرغم من وجودها بين حين وآخر ، مما يدل على أن الاسرة الشرقية والعربية لا تزال تحتفظ بدرجة كبيرة من التماسك والتآزر والمحبة . فأواصر الاخلاق والدين والمثل السائدة تمنع الوالدين من التفريط في أطفالهم الى حد التشويه .

مصير الطفل المهشم :

ان الأذى النفسي للطفل المهشم أشد وأعمق من الاذى الجسمي . فهو يتراوح بين الحرمان العاطفي والحسي والشعور بالكره الطاغي للابوين ، والخوف الشديد والكبت العنيف ، والميول العدائية تجاه الآخرين ، والسلوك الجانح والاجرام في المستقبل .

ان ضرب الطفل الى هذه الحدود يدل على اضطراب عائلي شنيع وعلى خلل في الاسرة بعيد المدى والنتائج . ولكن ماذا سيحدث في شخصية الطفل المصاب بعدئذ ؟

يقول الباحث النفساني ـ الاجتماعي (باولبي) إن الحرمان العاطفي والبعد عن الأم أو الأب ، والاسرة المشتتة (أي المهشمة بالفراق أو الطلاق أو الموت أو الحوادث) تحدث في الطفل اضطرابا نفسيا وخصوصاً اذا وقع هذا الحرمان في السنوات الخمس الأوليات من حياة الطفل .

وتركز نظرية (فرويد) على مراحل الطفولة في السنوات الاولى وما يتعرض له من تجارب مختلفة تؤدي به الى الكبت والعقد المختلفة ، أما ابنته (آنه فرويد) ، فقد أكدت على أن تكيف الطفل ونضجه ونموه الجسمي والعقلي يعتمد على حسن علاقته الوجدانية مع الأم بخاصة والابوين بعامة .

وتضيف (هيلين دوتش) أن احترام الذات والصراعات النفسية هي نتائج العلاقات العاطفية ونوعينها بين الابوين والطفل .

أما الدراسات الاجتماعية والنفسية عن الجنوح والاجرام فتدل على وجود علاقة ايجابية بين الطفولة التعسة الممزقة والميل للاجرام والسلوك اللااجتماعي والادمان والعنف . وقد ثبت من دراسة في انكلترا أن الاطفال الصغار الذين

تعرضوا للحرمان والخوف والاهمال بسبب الظروف العصبية للحرب العالمية الثانية وبخاصة السنوات ١٩٤٠ ـ ١٩٤٣ أصبح معظمهم من المخالفين واللااجتماعيين والمنحرفين ابتداء من سنة ١٩٤٨ وبعدها ، أي ابتداء من بلوغهم سن الثامنة

فالسنوات الخمس الأوليات من حياة الطفل ونوعية علاقته الوجدانية مع والديه وأسرته وما يتخللها من حوادث وتجارب ترسخ في نفسية الطفل وتحور من شخصيته واتجاهاته ونظرته الى الناس والمجتمع والحياة ، وتتضح الآثار السيئة بعدئذ في فترة الصبا والمراهقة والشباب .

والحل السليم . . .

ليست الحلول بالهينة اذا أردناها عملية تطبيقية بعيدة عن الخيال والنظرية الصرفة . فحقوق الآباء والأمهات تقرها جميع الأديان السماوية والقوانين البشرية ، والأم التي تنجب طفلها لسان حالها يقول : « هذا ولدي . . ولي حقوق عليه . . . » . ولكن الى أي مدى يمكن الاساءة الى الاطفال . . ؟ . فالتعاليم الدينية والاخلاقية والقانونية والاعراف الاجتماعية لا تؤيد الاعتداء ولا تعطي الحقوق لجهة وتحرمها من أخرى ، وتوصي بالعطف والرحمة .

ولقد وجد في علم النفس والطب النفساني أن أواصر المحبة والالتزام بالتبعية والمسؤولية تجاه الاسرة هي القوى الحساسة الدقيقة التي تزيد من متانة الأسرة وتعاطف أفرادها فيما بينهم ، ومن ثم ازالة شوائب الامراض النفسية المستقبلية ، وأية ميول غير اجتماعية أو إجرامية. فكيف نتوصل الى ذلك ؟ . .

١ ـ باكثار مراكز ارشاد المتزوجين الجدد التي تقدم لهم الحقائق الاولية والعلمية عن الحمل والولادة والزواج . .

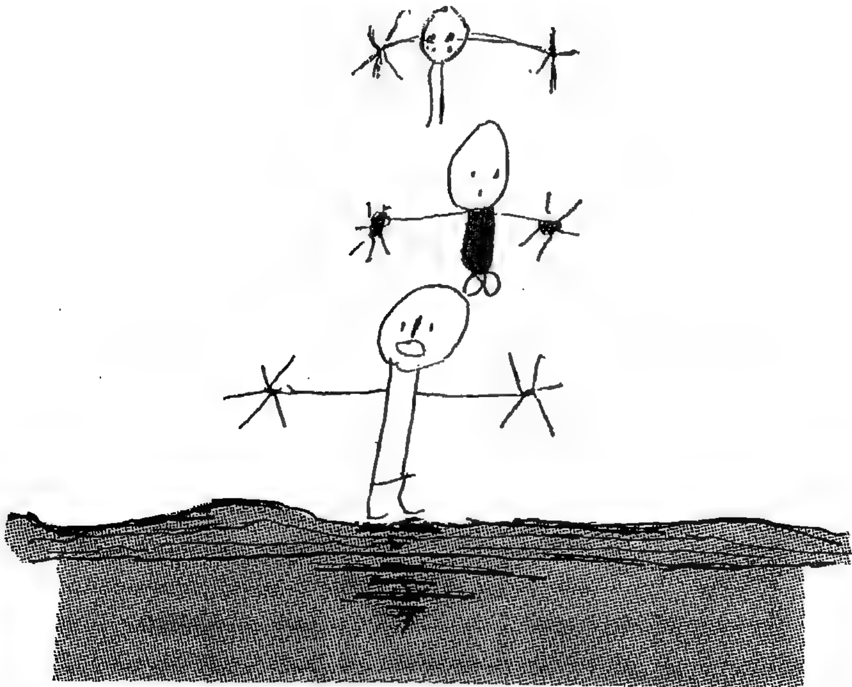
٢ ـ بتوعية الوالدين وبخاصة الأمهات عن طريق عيادات الأم والطفل وتنظيم الأسرة لكي تعرف الأم أصول الرضاعة والعناية الطبية ، وليستطيع الوالدان تخطيط انجابهما للاطفال ، وعندما نقول (تنظيم الاسرة) فيجب ألا نقع في مغالطة (تحديد النسل) لأن التنظيم يشمل التحديد عند الحاجة ويشمل الانجاب والاكثار من النسل عند الحاجة أيضا ، بالاضافة الى كل التعليمات

الصحية البعيدة عن الدجل وخرافات العجائز .

٣ ـ تعزيز الخدمات الاجتماعية التي توفر للاطفال دور الحضانة ورياض الاطفال والملاعب العامة والحدائق الترفيهية بحيث يتمكن الوالدان من التمتع بأوقات الفراغ مع ضمان سلامة أطفالهما وسعادتهما .

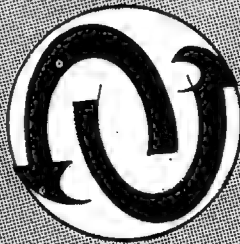
٤ ـ استمرار التوعية والتثقيف الصحي والاجتماعي للوالدين عن طريق المذياع والتلفاز والصحافة بأهمية الطفولة ومعنى الأمومة ، والنتائج السيئة للأهمال والقسوة ، وكيف أن الرسالة السيئة تنتشر من الكبار الى الصغار ، وأن الطفلة التي لم تتلق حنان الأمومة من والدتها لن تكون الأم المثالية في المستقبل .

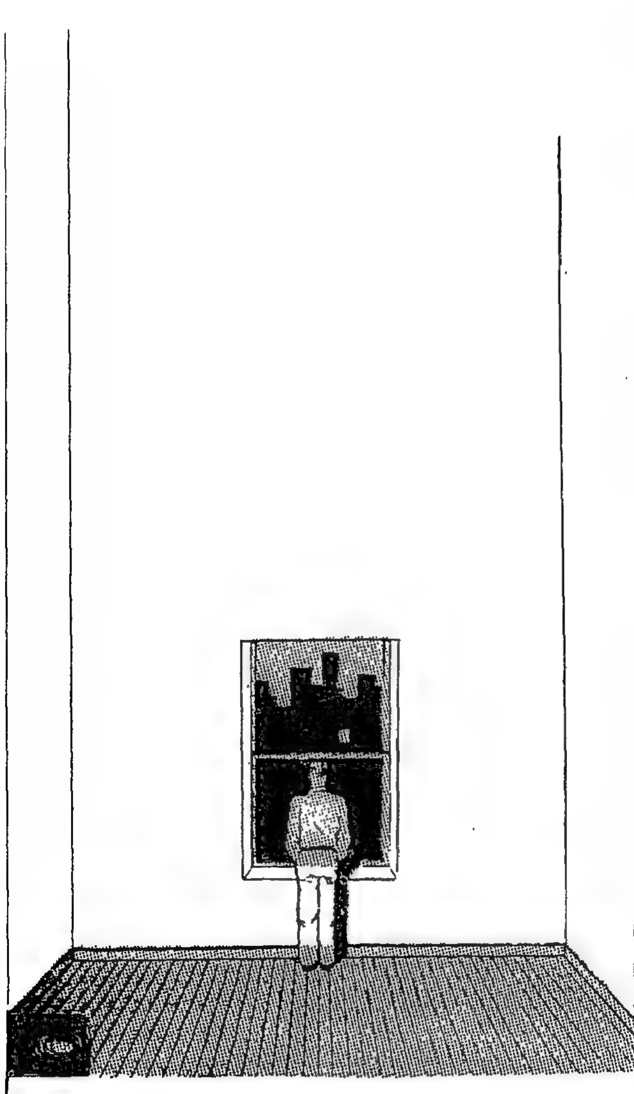
٥ ـ علاج حالات الآباء والأمهات المصابين بالامراض النفسية المعروفة



الفصل الثالث

اتجاهات نفسيّة واجتماعيّة :





الرفض بين الإيجاب والسّلبّ

القاعدة تقضي أن يهب الانسان ما يملك ، لا ما يملكه الآخرون . . والمنطق أن يرفض الانسان ما يعتقد أنه ضار أو فاسد أو باطل . . .

أما أن يعرف الانسان ما يملك ، فهذا أول متطلبات الحكمة . . ومن لا يعرف مقدار ملكاته وماهيتها كان مخلوقا ساذجا أو جاهلا ، وأما أن يعرف الانسان الضار والفاسد والباطل ، فهي أدق متطلبات الحكمة ، ومن يريد رفض شيء قبل اكتساب حكمة المعرفة تلك ، كان أيضا مخلوقا ساذجا أو جاهلا .

أقول هذا ، لانني أرى ـ كما لا يرى غيري ـ أن كثيرا من الناس يهبون ما لا يملكون ،ويرفضون ما لا يعرفون . وأصبح « الرفض » سلوكا مرحليا براقا كمستحدث الازياء مثلا . . وأصبح الرفض مفخرة ولازمة لاعمال قسم من الادباء والشعراء والنقاد وكذلك ـ وهو الاسوأ والاخطر ـ في تصرفات بعض الشباب .

العربي العدد ١٦٠ مارس ـ آذار ١٩٧٢ .

الرفض البناء :

ولا أريد الادعاء أن الرفض عمل منكر أو مستهجن ، لان أروع الاعمال وأعاظم السير وأخلد الحوادث تكونت من نطفة الرفض ومن طاقاته ، الانبياء رفضوا أوضاعا فاسدة أو ضارة أو باطلة . . المخترعون والعلماء والرواد رفضوا نظريات جامدة أو ناقصة . . المكتشفون رفضوا العيش ضمن جغرافية محدودة وحياة رتيبة مملة . . مشاهير الكتاب والادباء ، والمجددون في القصة أو الشعر رفضوا بعض الاساليب الوضعية المتكررة الخاملة . . وأخيرا المصلحون في كل مكان رفضوا النظم والسياسات التي كانت تذل الانسان أو تسيء الى تمتعه بديمقراطية اجتماعية واقتصادية وثقافية ، والجميع رفضوا وحاربوا الرياء والدجل في كل شيء .

الرفض اذن هو لب أعاظم الافعال ، الا أنه رفض مشروع ومعقول ، وشرعية هذا النوع من الرفض أنه ترعرع بفعل عوامل ملحة ، وكان مهضوما ومدروسا لا اعتباطيا أحمق ، وكان يرمي الى الاصلاح والفائدة الاعم أو دفع الاذى ومكافحة الشر الخطير ، ومعقولية هذا النوع من الرفض أنه في البناء الحضاري للمجتمع وللعالم .

الرفض الطفولي :

إن بعض الاطفال يرفضون الذهاب الى المدرسة مثلا ، وأصبح هذا النوع من الرفض مرضا نفسيا يدعى بـ « رفض المدرسة » وللمرض النفسي أسباب ودوافع لا ريب فيها . . وقد تكمن في المدرسة نفسها فتنفر التلميذ من الاقتراب منها ، وقد تكمن في البيت والاسرة التي تجذبه اليها وتعرقل اندفاعه أو مودته نحو المدرسة ، ومعظم الدوافع والاسباب يمكن معالجتها بالوسائل النفسية ، وينقلب الرفض بالنهاية الى ألفة وانسجام ، ويغدو الرفض المدرسي وأمثاله من الامراض النفسية للطفولة ظاهرة مرضية تستوجب العطف والرعاية الطبية ـ النفسية .

وما يروعنا ويثير اهتمامنا ، هو الرفض الطفولي الارعن ، الرفض الذي يمارس علنا ويوعي واصرار . فرافض المدرسة يستاء من سلوكه ويتعجب لتوجسه وإحجامه . . أما الرافض المعاصر فانه يبارك نفسه ، ويتعجب من توجس الآخرين وإحجامهم عن مجاملته أو تشجيعه ! .

الرفض المعاصر المريض .

والرافض المعاصر المقصود هو واحد من منتمي الجماعات الجديدة التي أطلقت على نفسها (الهيبيز) والـ (بيتلز) ـ الخنافس ـ والـ (بيتنك) والـ (البروفوك) . وهو ينسلخ ويتبرأ من أسرته ومجتمعه والنظم السائدة فيه ، لينساق وراء أسرة وجماعة ونظام آخر يتميز باللامبالاة واللاارادية والممارسات الجنسية الفاضحة والادمان والعنف والاجرام .

يقول (الرافض المعاصر) : أنا أرفض التعليم ، وأسخر من العلم ، ولا أكترث بالاخلاق ، وأتحدى السائد المزيف ، وأتنكر للعادات والتقاليد البالية ، وأحارب الظلم والاستعمار والتفرقة ، وأتبرأ من رجعية آبائي وأجدادي وجمودهم ، يقول ذلك ولا يفعل شيئا جادا تجاه ذلك . هو يرفض التعليم الجامعي لانه فاشل . . ويسخر من العلم ولا يطعمه بالاخلاق . . وينتقد النظم والتقاليد ولا يقترح كيف يريد أن تتطور وكيف يجب أن تكون . . ويحارب الاستغلال والتفرقة وهو مستلق على أعشاب حديقة أو حقل منعزل وبجانبه فتاته التي تتبعه كالشاة الراكضة وراء خروف .

أفكار مثالية وحلول خيالية . . مبادىء عالية وممارسات دنيا . . اقتراحات مبهجة وأعمال تعسة . عالم من المتاهة والضياع والتذبذب . . مجتمع من المتراجعين الناكصين . . جزر بشرية تطفو على بحار من الامجاد والتضحيات القديمة . . وأعجب ما في هذه الجزر البشرية أنها تعوم على أذرع الآباء والأجداد المساكين ، وترقد في أحضان الحضارة والحنان التليد . . وتقتات بل وتستجدى من تلك المدنية التي يتنكرون لها ، ومنظر الرافض المعاصر وهو يستجدي القروش القليلة من المارة (غير الرافضين) يجسم ازدواجية الرافض المعاصر وانحلاله ، ويصور هامشية حياته وتطفله على الناس والمدنية التي يدير لها

ظهره . . ولكن ، يمد اليها يده !! .

الادب الغاضب :



والحديث عن الرفض يجرنا الى أدب الرفض الذي يضم كتابات لمجموعة من الشباب الغربيين أطلق عليهم « الجيل الغاضب » من الكتاب ، وأصبح بعضهم من كتاب « اللامعقول » ومسرح « اللامعقول » ، وهم موزعون بين ألمانيا وفرنسا وانكلترة وأمريكا . . وأحدث إنتاجهم صدى مقبولا لدى القراء ، واحتل مكانا مرموقا في الادب المعاصر . وما يجب أن يقال عن هذا النوع من الادب أنه لا يمت بصلة أو يتجاوب مع حياة الرافضين الهاربين الآنفي الذكر وآمالهم وأفكارهم ، كما أن كتابه لا ينتمون الى تلك الجماعات لا بالهيئة ولا بالمضمون ، ولم يؤلفوا فيما بينهم جماعة أو اتحادا أو اتفاقا منهجيا ، بل إن كتاباتهم تواجدت وتجاوبت بطابع تلقائي عام . ومثل هؤلاء يصح أن يطلق عليهم « الرافضون الهادفون » لما في انتاجهم من تجديد وبناء ومعنى وعمق ، وقد ذكرنا سابقا أن الاعمال المجيدة لم تكن الا نوعا من الرفض المنتج ،

فغضبهم هو تعبير عن إدراكهم العميق لتناقضات مجتمعهم ، وأدبهم ومسرحهم هو صراخهم وتحديهم وتمردهم ، ولا معقولهم هو تصوير صادق للامعقولية مجتمعهم ، انهم يتعاملون بشيء جدير بالاهتمام والدرس مقابل ما يرفضون خلافا للرافضين المعلولين الذين يرفضون ويتعاملون دون مقابل .

الرافضون المقلدون :

وهنالك « الرافضون المقلدون » الذين ابتلى بهم مجتمعنا العربي النامي في شتى ميادينه الفكرية والاجتماعية ، فمن « شاعر - ثائر » يفهم الرفض كلاما نابيا مفتقرا للذوق . . أو سليطا منمقا غريب التعابير ، ومن أديب رافض ينحو نفس المنحى في مقاله أو قصته أو نقده ـ ومن شاب مراهق يحاول رفض أي شيء بارتدائه غرائب الازياء أو بارخاء شعره واكتناز قذارته .

هؤلاء الرافضون المقلدون مجموعة من السذج أو الجاهلين الذين لا يعرفون ما يملكون ويرفضون ما لا يعرفون ، فلا المطبوعات ولا الافلام السينمائية يمكن أن تجعل الفرد العربي غربيا حقا الا في الخيال ، والمجتمع الغربي ليس مجرد صورة في صحيفة أو واجهة مخزن تجاري كبير ولا هو بظاهرة هينة يتمتع بها السائح العابر ، الحياة الغربية تجربة عميقة لا يحسها الا الغربي الاصيل . فالتقاليد . . والانتاج غير الاصيل . . والرفض الساذج . . كلها أشياء ممجوجة ومنفرة وغريبة على المجتمع العربي . وهنا يكمن الداء الذي يجب أن نشخصه ونعالجه على مستويات الفرد والجماعة والدولة .

ولو اعتبرنا ظاهرة الرفض مرضا نفسيأ ، لهان علينا الامر . . ولكن البلية أن الرافضين من هذا النوع يجادلون ويتبارون في النقاش والدفاع عن انتاجهم أو سلوكهم ، ويتذرعون بالحرية الشخصية . . وما أكثر ما للحرية من معان وتفسيرات ! . .

سيكولوجية الرفض والمريض :

أقول لو اعتبرنا ظاهرة أو « موضة الرفض » مرضا نفسيا، لكان الواجب

علينا أن نستقصي أسبابه ، فالظواهر المرضية تنبع من ظروف تبررها ويمكن معالجتها . وقد تكون الاسباب واحدة أو أكثر مما يلي :

١ ـ الشعور بالفراغ والخواء الفكري والعاطفي ، ويعزي ذلك الى ارتخاء الضبط التربوي ، وإلى الحرمان وتفكك الاسرة وسيطرتها .

٢ ـ الفشل والخيبة في الحياة العامة .

٣ ـ الشعور بالنقمة تجاه الناجحين واللامعين .

٤ ـ الانفعال العدائي ضد السلطة والآباء والذين يمثلون القانون والنظام والعرف السائد .

٥ ـ التحدي ـ بالفعل أو القول ـ لكل كيان منظم ومنسق .

٦ ـ الاصابة بأمراض نفسية مزمنة كالقلق والعصاب ، والتي تمهد للانجراف نحو الادمان والاجرام والى الهرب الاجتماعي .

٧ ـ عدم الثقة بالذات والمواطنة وبالانتماء الطبيعي ، مما تدفع بالمرء الى المحاكاة والتقليد وإلى الاحتماء بالجماعات الشاذة أو العصابات الاجرامية .

٨ ـ رفض الاحسان ونكران الجميل الذي يقدمه لهم مجتمعهم أو مؤسساتهم الانسانية كنتيجة حتمية لشعورهم بالاثم والتقصير . أي أنهم ـ علاوة على اثمهم ـ يريدون حفظ ماء وجههم ومواراة خجلهم بالنكران والاستعلاء ! .

٩ ـ انعدام الوازع الديني والاخلاقي الذي يشد الفرد الى المجتمع والاسرة ، ويحثه على العمل والكفاح .

هل من علاج ؟

لعل في قول يوجين يونيسكو ـ أحد زعماء مسرح الامعقول ـ التصوير الدقيق لاوضاع المجتمع الغربي إذ يقرر : « المجتمع اللامعقول هو الذي لا غاية له . . وهو المجتمع المنفصل عن جذوره الدينية وتقاليده . . وفيه يكون المرء ضائعا . . ولا معنى لكل ما يصدر عنه ، ولا فائدة ترجى منه » .

والرافضون الهاربون الذين تحدثنا عنهم هم الجيل الضائع المنفصل عن جذوره التاريخية والدينية وتقاليده ، وما يصدر عنهم لا معنى له في الحقيقة ،

وفقـدان المعنى وغموضـه أحيانـا هو مـا يحـاول عـرضـه وتجسيمـه الكتـاب الغاضبون ، أو تمثيله على مسرح اللامعقول ، لكن مـا الذي يحـاول تجسيمه وتصويره الكتاب المقلدون وهم لا يزالون في مجتمع يعيش مرحلة تختلف بكثير عن المجتمع الغربي ؟ . لقد تسرع يونيسكو عندما جزم بانعدام الفائدة وفقدان الرجاء . . اذ لو صح ذلك لتلاشت الفروق بين الرافضين التائهين والنـاس الآخرين ، بل لاصبح سلوك الضائعين والمقلدين أقرب الى الصواب من سلوك الراشدين الملتزمين ، وهنا يتجلى الفرق بين اليائس المهزوم من جهة والمتفائل الصامد من جهة أخرى .

ان التجديد والاصلاح ، وأبحاث التربية وعلم النفس والاجتماع تحاول بجد وتفاؤل تعديل الاوضـاع الفاسـدة وتقويمهـا وازالة التنـاقضات واعـادة المجتمع الانساني الى دروب الخير والعدل قبل أن تربكـه وتعكر صفـوه تلك الجماعات « اللاعاقلة » .

والجـواب على ذلـك كامن في التـربية البيتيـة ، في التعاليم الاخـلاقية والدينية ، في احترام القانون ، في الاصالة ، في الاعتزاز بالتراث ، وفي الانتماء القويم .



عُكازات وأقنعة !

نظرة خاطفة الى انسان العصر وسلوكه وأخلاقه ومواقفه تثير في المتأمل المفكر تساؤلا واحدا على الاقل من بين عشرات التساؤلات الخطيرة وهي : أين شخصية الانسان الاصلية . . . ، ومامقدار الطبيعي والجوهري من خلقه وسجاياه . . . ، ومامقدار المزيف والمكتسب والظاهري منها ؟ .

وباستعراض سريع وشامل لسلوك البشر ، سنصاب حتما بخيبة أمل عندما نجد أنه كلما قطعت البشرية عقودا وقرونا من الزمن فانها تفقد من الجوهر وتزيد من المظهر المصطنع ، وتضيع بين القشور وتنحدر الى الخداع : خداع الذات وخدع الآخرين .

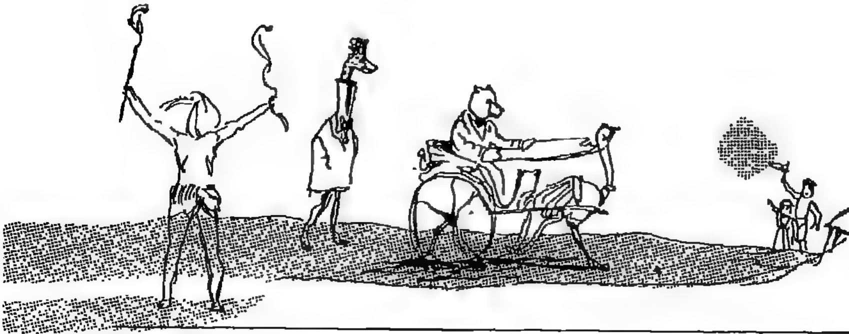
العربي العدد ٢٤٢ يناير ـ كانون الثاني ١٩٧٩ م .

الاغريق . . . والقناع

ونحن نعرف من أدب علم النفس أن اصطلاح الشخصية Personality مشتق من كلمة Persona الاغريقية والتي تعني (القناع) ، والقناع في تلك الحقبة من الزمن كان يضعه الممثلون على وجوههم أثناء تمثيلهم المسرحيات المختلفة باعتبار أن كل قناع يدل على (دور) الممثل وشخصيته : فهذا إلَه . . وذاك وحش . . وذلك فارس . . وتلك فتاة . . وأخرى زوجة . . وآخر مهرج . . وهكذا . .

وقد كان تفكير الاغريق منطقيا وواقعيا باعتبارهم أن سجايا الشخص تبدو في تعابير وجهه وسحنته ، أو أن دور الشخص يتحدد بالقناع الذي يضعه ، واكتشف علم النفس الحديث كذلك أن الشخصية البشرية غالبا ما تحتمي وراء الاقنعة فلا نرى من حقيقتها الا ما ظهر منها وليس ما بطن .

وحياتنا اليومية تثبت ذلك ، فالشخص الاجتماعي « المهذب » هو بالحقيقة يمثل دوره الاجتماعي وراء قسمات وجهه وتصرفاته بعد مسيرة طويلة وشاقة من التمرين والتعليم في البيت والمدرسة والمجتمع ، نحن نبتسم ونجامل ونحيي ونتلفظ بكلمات العفو والشكر مهما كان شعورنا الحقيقي الباطني ، نحن نمثل الادوار التي صممتها لنا ووزعتها علينا ظروف الحياة التي نعيشها في أطرها وهي أطر التقاليد والعرف والقانون والاصول والعادات ، ومن هذا المصنع تنتج الاقنعة المختلفة وتوزع على الناس كما توزع الادوار على الممثلين ، ولهذا



فان قول احد علماء النفس « كلنا نضع الاقنعة صحيح جدا ، لكن توزيع الادوار والاقنعة الذي يتم بحكم التطور الحضاري والوضع الاجتماعي والأسري شيء ، ووضع الاقنعة الذاتية المصطنعة لاغراض خاصة شيء آخر . . . .

التوكؤ على الاشخاص والاسماء :

فهناك من الناس من يضع الاقنعة التي تناسبه ويرسم الادوار التي يريد أن يمثلها عن قصد وتدبير ، كما يحدد المعونة التي يريدها والعكازات التي يستند إليها في درب الحياة لتحقيق مصلحته ، هؤلاء هم الذين يستخدمون الاقنعة والعكازات « النفسية والاجتماعية » بأساليب منظورة أو مستترة .

فالوساطة المتفشية عكاز عريق معروف . . والاعتماد على القربى والاصدقاء من ذوي النفوذ عكاز آخر . . والاديب المغمور الخائب يتكىء على ناقد صديق لامتداحه ورفع شأن انتاجه . . والذي يستجدي المديح والتشكرات يقف وراء ستارة من ورق وكلمات ، وهناك نوع خاص من الاقنعة التي تخلو من كل تعبير وسمة ولايمكن قراءتها وما تخفيه من ورائها . . . وهي شهيرة عند لاعبي القمار . كلاعب (البوكر) الذي لا يختلج وجهه أو تلمع نظراته لئلا يقرأها منافسوه في القمار . . ولقبه « صاحب وجه البوكر »

لقد أصبحت الاقنعة العصرية مرتسمة على الوجوه ذاتها وأصبحت الاقنعة التمثيلية اليونانية القديمة لعبا وتسلية للاطفال يشترونها من مخازن الالعاب ! حتى الاسماء استعملها البعض عكازات لتسهيل امورهم . كان الاسم الحقيقي للكاتبة الفرنسية الشهيرة (جورج صاند) (١٨٠٤-١٨٧٦م) هو (ارماندين لوسيل أورور) لكنها حملت اسم الرجال لترويج كتاباتها الى أن عرفها الناس .

ويذكر الاديب المعروف الدكتور عبدالسلام العجيلي في كتابه (أشياء شخصية) أن باحثا ومفكرا عربيا وضع على بطاقته الشخصية وتحت اسمه ولقبه (المرشح لجائزة نوبل) ، بينما ملخص الحكاية أنه سبق لذلك الباحث أن أرسل خطابا الى اللجنة الاكاديمية السويدية لترشيح نفسه للجائزة فأرسلت اليه

اللجنة ـ حسب الاصول المتبعة ـ اشعارا بالاستلام ووصول الخطاب فقط ! .

ويذكرنا هذا الطراز من الناس بمفكرين آخرين ممن رفضوا جائزة نوبل لانهم لم يجدوا فيها مايزيدهم قدرا مثل برناردشو .

وفي سوق الشعوذة :

وتتجلى عملية التلاعب بالقيم واستخدام الاقنعة والعكازات في وسائل الدعاية التجارية الرخيصة وبين الدجالين والمشعوذين ، وقصة الدجل في العلوم الطبية في القرون المظلمة ـ وحتى الآن ـ من أبرز الامثلة على ذلك . . كالذي ينتحل صفة الطبيب المتمرس ويعلق الشهادات المزورة لاثبات ذلك أمام البسطاء . وكم من مرات قبضت سلطات الأمن ونقابات الاطباء على دجالين من هذا القبيل ادعوا أنهم متخرجون من كلية الطب المعينة فاذا بهم جهلة محتالون .

ومن طرائف الحكايات في تاريخ الطب ما حدث من نقيض ذلك ، فقد اتهم طبيب في باريس بانتحال صفة الطب والشعوذة ، فلما حقق معه تبين أنه يحمل شهادة طب حقيقية ، لكنه اعترف بأنه آثر اخفاء شهادته الرسمية لان والده كان متطبيا دون شهادة وكان مشهورا وناجحا في عمله . فلما ورث الابن الطبيب (الرسمي) لقب أبيه ورواج مهنته فكر بأن يستند على سمعة أبيه بدل شهادة الطب الشرعية ! .

وتقبض سلطات الامن بين حين وآخر على محتالين مغامرين ينتحلون صفات رسمية وأمنية فيهددون البسطاء والسذج ويبتزون الاموال ، لكن السلطات الساهرة تفضحهم على الملأ في الصحف كعبرة لغيرهم .

وتطيب لبعض الناس المناصب والعناوين البارزة . . . ويجدون في الانفتاح والتضخم باللفظ والمظهر اكمالا لمكانتهم وشخصياتهم ومصدرا لسعادتهم الحقيقية ، فاذا وصلوا الى مركز أو احتلوا منصبا تمسكوا به وتعلقوا كتعلق الغريق بقارب نجاة والجائع بلقمة غذاء ، ويكون شغلهم الشاغل كيفية الاحتفاظ به وايجاد الوسائل لترسيخه .

لذلك نجد أن هذا النمط من الشخصيات يصاب بذعر ويشعر بمأساة حقيقية اذا حدث أن فقد مركزه كاجراء طبيعي لابد من حدوثه في أية دائرة أو مؤسسة تحتاج الى تحرك وتطوير . فتغيير المراكز والاشخاص قد لايكون علامة الفشل بل دليل الصحة الطبيعية وسنن التطور والتغيير ، فعكازة المنصب التي يفقدها الشخص أو المغرور أو غير الواثق من نفسه تؤدي الى شبه انهيار أو اكتئاب أو همود فكري ، بينما نجد الشخص الذي يعتقد أنه يزين منصبه وأنه يؤدي واجبا ومسئولية لها حدود في الزمان والمكان لن يجد في التغيير أو فقد المنصب يوما حدثا خطيرا يمكن أن يؤثر في ذاته أو نظرة الناس اليه ، وفي ذلك ينطبق قول الشاعر الحكيم المتنبي :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم

وتذكرنا هذه النماذج البشرية بحكاية الكاتب الانكليزي الشهير (توماس كارلايل) الذي كان قد تلقى رسالة من رئيس الوزراء (دزرائيلي) آنذاك يرشحه فيها لحمل لقب (لورد) ، وكان رد كارلايل على ذلك بأن أوضح لدزرائيلي أن اللقب وما يتبعه من مرتب لن يرفع من قدره شيئا ، وأنه لم يعد يطيق حمل لقب اللورد الثقيل وقد ربا سنه على الثمانين عاما .

ذوو العكازات والاقنعة هواة الالقاب والمناصب تخدمهم ولا يخدمونها . . تحميهم ولا يحمونها الا بقدر ما تعزز مصالحهم ومصادر قواهم ونفوذهم .

الملابس أقنعة :

وكان الانسان القديم شبه عار الا ما يستر عورته من ورق الشجر أو رقع نسيج بسيط أو جلد حيوان ، وكان يلتفع بقطع بسيطة لتقيه البرد القارص أو الريح أو الشمس الحارقة . كانت الملابس وسيلة للتكيف المناخي الجغرافي ليس غير .

وتحضّر الانسان وانتبه الى مآرب أخرى في الملبس والمأكل ، فأصبحت للملابس رموز ودلائل مختلفة ، وتعددت المعاني والرموز بظهور الطبقات

وتعددها والقيم الاجتماعية الجديدة . وأصبحت الملابس والازياء ونوعية الاقمشة تدل على الثراء أو الفقر . . وعلى الوجاهة أو الشعبية . . وعلى الجنس والحالة الزوجية . . وعلى الجمال والاناقة . . ثم أصبح الملبس قناعا للدلالة على هذه القيم، إذ لا يمكن لاي انسان أن يتظاهر بالجاه أو الجمال أو النفوذ أو الطبقية إلا باختيار الزي الذي يدل على ذلك ، وذوو « الياقات البيض » اشتهروا في أوروبا ـ وانكلتره على الخصوص ـ كعلامة مميزة عن غيرهم من العامة !

وأصبح اللباس واللسان للتمويه أيضا ، فكيف يختفي الجاسوس والعدو ومجند الطابور الخامس بين شعب معين اذا لم يتزيَّ بلباسه ويتصرف وفق عاداته ويتذرع بسجاياه ؟

ألم يلبس (لورنس) الكوفية والعقال والعباءة ويتكلم العربية بطلاقة لهذا الغرض ؟ . .

والزي (أو المودة) سلاح للمنافسة والتسابق واثارة الغيرة بين النساء ، وقد وجدت الانثى في (الماكياج) قناعا تكنولوجيا يبرز المحاسن ويخفي المعايب ويجذب الجنس الآخر ويكسب المعجبين ويصطاد الازواج ـ وهذا هو التبرج بعينه .

والشعر المستعار (الباروكة) لدى النساء ـ وأحيانا الرجال ـ أسلوب آخر استخدمه انسان العصر للزينة والتبرج وتمثيل الادوار ، ويكون التكلف فيه ممجوجا وواضحا لانه يستعمل في غير محله وبخاصة الرجال .

وكم من اقتصاديات منزلية وأواصر زوجية انهارت أو تزعزعت بسبب التشبث بعكازات الاثاث المنزلي وأقنعته التي يقتنيها رب المنزل أو زوجته للظهور بمظاهر « لائقة » ترضي و (تخدع) الآخرين دون التعقل والرجوع للواقع والاكتفاء الذاتي والتواضع ، فاهمال التخطيط الواقعي لميزانية الاسرة لمجرد إشباع نزعة الغرور والأبهة السطحية والجاه الكاذب هو خداع للنفس قبل كل شيء . .

من هنا نجد أن النقائض في أي مظهر من مظاهر الحياة خلاف الحقيقة والواقع إنما هي أقنعة وسجون نفسية يمكن تجاوزها بالابتعاد عن الوجاهة الكاذبة أو التبرج والدلال المتعمد واستثارة الغرائز ، والاحتفاظ بمبدأ البساطة

في كل شيء ومن جملته جوهر الانوثة الطبيعية النبيلة المحتشمة الرزينة . .

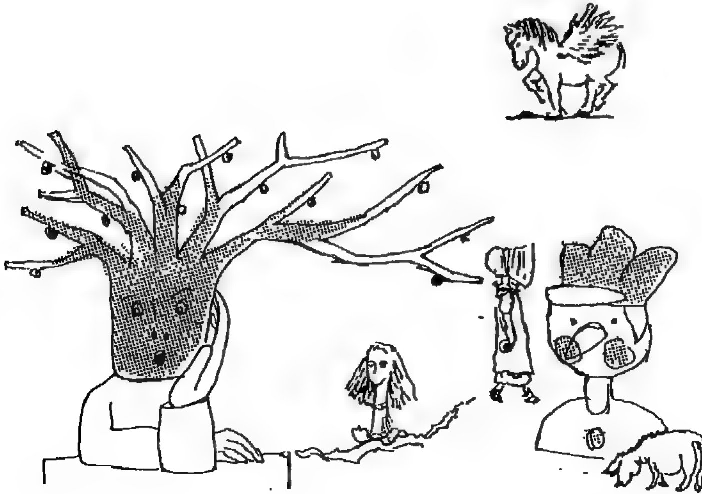
ومن المرارة الاعتراف بأن البعض من ضعاف الايمان يستغلون دينهم لتسهيل أمور دنياهم وليس تلبية لروح الدين والاسلام .

فالبعض - وأؤكد على كلمة البعض - يحج الى بيت الله الحرام ليس للتوبة وغسل الذنوب بل لان صفة الحاج تجلب له الاحترام والتقدير وتزيد من ثقة الناس فيه لتزدهر تجارته وأعماله ، أو لتنفي عنه ما ينعته الناس به من طباع سيئة (وقد تكون أغلبها صحيحة) .

والغريب أن من يحج لهذه الغايات يخدع نفسه فقط لانه يعود ويزيد من صفاته السيئة السابقة ، ويكون قد لجأ الى الحج كعكاز وقناع ، وقُلْ كذلك عن بعض المصلين والصائمين . وهذا هو النفاق في الدين ، والله أعلم بسرائر النفوس ومن يستأهل الرحمة والغفران .

قال تعالى : « ان المنافقين في الدرك الاسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا » - سورة النساء ١٤٥ .

وقال تعالى : « ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » - سورة النحل ١٢٥ .



واذا استطردنا في الحديث وجدنا عشرات الامثلة الاخرى التي تبين مدى انغماس انسان العصر في الاعتماد على المظهر والقناع والعكاز في تسهيل أمور يمكن أن تسير بأسلوب آخر ـ وتصل الى نفس الهدف ـ أنبل وأشرف وتجلب سعادة عميقة وحقيقية . ولكن لابد أن نضيف ـ وعلى سبيل الانصاف ـ أن هنالك أعمالا بريئة القصد ، نقية النية وإن بدت كوسائل وصولية ومظاهر زائفة لكنها بالحقيقة غير ضارة وتحتمها الظروف .

فالضرورة تقتضي أحيانا استعمال الشعر المستعار لدى الاصلع . . أو الممثلة والمطربة لاداء دور يتناسب فنيا مع ذلك الدور ، والمؤلف الذي يقدم كتابه للقراء بتمهيد وتعريف من قبل كاتب آخر أقدم منه أو أعلم انما يساعد على الايضاح وتفسير محتوى الكتاب أو أهدافه أو مدى أهميته بدل أن يدير القاريء له ظهره لجهله به أو عدم ثقته باسم الكاتب الناشيء ، وكان بعض الممثلين والمطربين الموهوبين الناشئين قد قدمهم للجمهور أساتذتهم الكبار . .

كتب أحد الولاة إلى الخليفة العادل الاموي عمر بن عبد العزيز أن أهل السواد (العامة) يتظاهرون بالاسلام هربا من دفع الجزية وأنه يرى ألا يقبل باسلامهم الظاهري ذاك حتى لا تقل غلة بيت المال ، فأجابه الخليفة بحكمته وبعد نظره واداركه لواقع الدنيا والدين جوابا ينطوي على العتاب والتعنيف : « اذا جاءك كتابي فأسقط الجزية عن كل من شهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، فان الله بعث نبيه هاديا ولم يبعثه جابيا » .

وهذا مثل رائع في تحليل السلوك البشري وفهم للاسس النفسية في كسب المترددين من غير المسلمين .

ولاريب أن طبيعة التطور ترغم الانسان على التكيف تجاه معطيات العلم والتكنولوجيا والتركيب الاجتماعي والعلائق الاقتصادية والسياسية ، فان طرأ على سلوكه تغير وتحول فان ذلك لايعد ظاهرة مريضة أو سيئة تصل الى الطعن في أخلاقه أو نقاء ضميره فالاصل هو الجوهر ، والجوهر في الانسان هي انسانيته المجردة عن التصنع والنفاق والدجل ، ومعرفة الانسان لنفسه واحترامه لها ـ دون التخطيط العمد والحيلة ـ هي علاج لكثير من العلل الاجتماعية والنفسية .

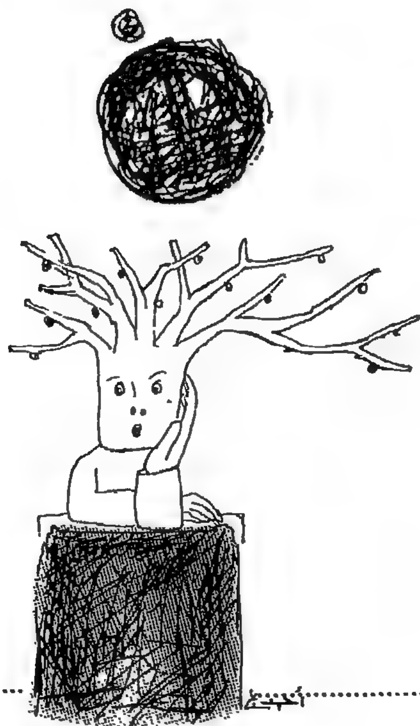
الرجوع الى الطبيعة :

بعد كل هذا ، نجد أن الانسان المعاصر يواجه تيارا جارفا ظالما من التكنولوجيا والماديات والاطر الاجتماعية التي تقيده وتجعله أشبه بالآلة الجامدة أو الالعوبة التي تحركها أيادي الحضارة بخيوط رفيعة متينة كخيوط الدمى ، فهو مدفوع أحيانا الى اتباع دروب والتواءات لا مفر منها كقشة طافية على وجه نهر دافق ، وهو ـ من ناحية أخرى ـ يجد نفسه وقد فقد ذاته وفقد ظله ، وأنه مسؤول عن ذلك باندفاعه وراء منفعة أو لذة وقتية أو نشوة عابرة من جاه أو نفوذ أو منصب أو شهرة ، ثم لايلبث أن يندم بعد فوات الاوان لانه لايجد الا بقايا حطام ، والا المحبة الحقيقية للانسان ، والا العلاقات الصميمة ، والا الملجأ الامين البسيط . « أما الزبد فيذهب جفاء . . . » .

فهل باستطاعة الانسان أن يعمل شيئا لينقذ نفسه ؟ وهل بامكان المؤسسات التربوية والاجتماعية والتوجيه القومي الاصيل أن يغير من انسان العصر ويعيد اليه طبيعته ؟ . أعتقد أن ذلك ممكن اذا احتفظنا بتراثنا وأخلاقنا ومثلنا وأصالتنا دون تقليد واستيراد . . اذا مجدنا البساطة . . . وعرفنا معنى الاقتصاد . . وتعاملنا بالصراحة والطيبة . . وعرفنا مالنا وما علينا . . واحترمنا حقوقنا وحقوق غيرنا . . ثم اذا تعلمنا وربينا الاجيال الصاعدة على الشجاعة الادبية والاجتماعية ، وأفسحنا لسجايانا الطبيعية البريئة أن تعبر عن نفسها . . وأتحنا لغيرنا أن يمارسها كذلك دون اعتداء أو مساس أو خدش لشعور أحد وحقوقه . .

فالعودة الى الطبيعة ، وعدم التكلف تزيل كثيرا من أمراضنا النفسية المعاصرة كالقلق والحصر والوسوسة ، ويقتضي التنويه هنا أن خلاصة العلاج النفسي الحديث بمختلف مدارسه واتجاهاته هي بالحقيقة مساعدة المريض لكي يجد نفسه الحقيقية ويكتشف ذاته وانفعالاته واتجاهاته ورغباته المكبوتة التي طاردتها وطمستها ظروف الحياة ، حتى أن بعض المعاهد والمؤسسات والنوادي النفسية ـ الاجتماعية الحديثة تجد لها جماهير غفيرة من المشاركين الذين يجدون في نظام المعهد متنفسا لعواطفهم ، حيث يستطيعون هناك أن يعبروا عن آرائهم بصراحة ، سواء بالنقد المتبادل أو بالغضب أو اللعب والضحك . . . أو

بالسفر . . . مما يؤكد مرة أخرى أن جزءا لا يستهان به من ذواتنا يضيع ويختفي وراء حياة اصطناعية من أقنعة وعكازات هي سبب العلل النفسية والاجتماعية التي نعانيها .



ضـــرورة الانتـــماء

قيل يوما إن « الانسان اجتماعي بالطبع » . . وأصبح القول مثلا عاديا لا يثير في الفرد المعاصر انفعالا أو وجدانا واعيا بخطورته أو مغزاه . . بل لعل الفرد المعاصر أصبح أشد حماسا وتجاوبا مع أبناء الغاضبين . . والثائرين . . والذين لا ينتمون في دروب الادب ، ومسالك الحياة ومتاهات الفكر والفن . ويبدو أحيانا أن من الاصح أن يقال الآن : « كان الانسان اجتماعيا بالطبع . . ولكنه يجرب الآن ألاّ ينتمي ، وهـو يحث خطاه في النصف الثاني من القرن العشرين ! . »

الا أن محاولات الانسان ألا ينتمي ، أي أن ينسلخ عن دائرته وبيئتـه هذه ، لايمكن أن تثبت الا حقيقة نفسية واحدة هي أن الانسان ينتمي بطبعه ، وأن اللاانتماء المستديم علة اجتماعية وظاهرة نفسية مرَضية جـديرة بـالبحث والتحليل ، وهو مانحاول كشفه واستعراضه في هذا المقال .

ودلائل « اجتماعية الانسان » و « انتمـائيته » وفيـرة جاهـزة : شعوره بالحنين للوطن والجماعة عندما ينأى عنهم . . وتذكّره الايام الحلوة السعيـدة العابرة . . ونسيانه كل ما هو سيء وقبيح في مجتمعه البعيد عنه . . ثم شعوره

ـ العربي ـ العدد ١٢٤ مارس ـ آذار ١٩٦٩ م



بالقلق والخوف الغامض يعتصر فؤاده اذا وجد نفسه وحيدا أو بين جماعة من الغرباء . . ثم استرداده لثقته وحيويته بين خلانه وأصدقائه . . وغير ذلك كثير . . كل ذلك يؤكد بصورة لا تقبل الجدل أن الانسان مربوط بأواصر الاجتماع والانتماء : جسميا (بيولوجيا) ، وروحيا (بالمثل والمبادىء) ، وعقليا (بالثقافة والتربية النفسية) . . بالاضافة الى أواصر دقيقة أخرى لاتعد ولا تحصى . . .

الانتماء البيولوجي :

والانتماء البيولوجي غذاء حيوي للانسان لا يقل أهمية عن البروتينات والنشويات والفيتامينات التي تشكل غذاءنا اليومي . . لكنه غذاء « غير منظور » لا نحس بحاجتنا اليه الا في المناسبات أو التجارب القاسية أو المرض . .

ان جهازنا العصبي لايمكن أن يعمل بصورة صحيحة ما لم يتلق غذاءه من « الدفعات » الخارجية والمعلومات الحسية الهائلة . والشعور بالحياة والاحساس بالوجود ، كل هذا انما يأتينا عن طريق وجود الآخرين النائين والمقربين . آلاف

الاحاسيس الصغيرة منها والكبيرة تغذي جهازنا العصبي وتجعل أدمغتنا مهيأة للاستجابة والاتصال بالعالم الخارجي .

والمولود الجديد الذي لا يسمع ، لايمكن أن ينطق أبدا لأن السمع غذاء المخ . . منه يتلقى الرموز والاصوات واللهجات ، وعليه أن يرد ويتكلم ، فكل أصم هو أبكم ، اذا بدأ صممه مبكرا جدا . أما الذي يسمع لفترة من حياته ثم يصاب بالطرش فانه يتكلم استنادا على « معلوماته » السابقة التي تلقاها عن أذنيه .

ولذلك يشبه بعض العلماء العقل البشرى بالعقل الالكتروني : جهاز معقد جدا لايمكن أن يعمل ولا أن يجيب ولا أن يحل المعضلات ما لم يتلق « غذاءه » من المعلومات الاولية ، وهي معلومات يضعها الانسان في الجهاز . أما جهازنا العقلي فيستلم غذاءه بصورة طبيعية في كل لحظة من الزمن بصورة معلومات حسية حياتية لا تحصى من الجماعة والهيئة والمحيط والثقافة . . .

في حجرة معزولة عن الصوت :

وقد اتجه علم النفس بسرعة الى دراسة الجماعة والمحيط والثقافة وتأثيرها على نفسية الفرد ، لانه لاتمكن دراسة الذات الواحدة والنفس المستقلة دون دراسة الاطار الذي يحيط بها أو الفلك الذي تدور في مداره . وقد أجرى أحد علماء النفس تجربة على نفسه ، اذ دخل في حجرة معزولة عن كل صوت ومبطنة بالجلد المحشو السميك . . . فلم يحتمل « زنزانته » الاختيارية تلك أكثر من بضع دقائق ، وبدأ يستغيث طالبا اخراجه منها . فالعزلة الشديدة تؤدي بالانسان الى التخيلات وتخلق فيه هلوسات من أشباح وأضواء وأصوات وهمية . ويذكر العالم الفسيولوجي هيب أن أحد طلاب الجامعة الاصحاء تطوع لان يعزل نفسه عن الاصوات والاحساسات الاخرى لمدة أيام . . ووصف مشاعره بعد التجربة بأنه : « أصبح منشطرا الى شخصين لايدري أيهما هو . . الشخص المهلوس المشوش ، أم الشخص الخائف المنهار . وأنه أصبح عديم البصيرة قليل التمعن والتمحيص ، شديد الرغبة للاصغاء والاعتقاد بكل ما يجوس بخاطره من سخافات ! ! » .

حالة انعدام الوزن :

وحالة فقدان الوزن لدى رواد الفضاء تماثل العزلة الشديدة واضمحلال الشخصية .
فالطيار لا يشعر بوزنه . . وعليه أن يتنفس بقوة ويطلق الزفير لئلا يختنق . فالهواء من حوله عديم الوزن أيضا ، وكل شيء غير مربوط يعوم في الهواء بحرية ! . . واذا عطس أو سعل فقد يقفز بكليته من مكانه ويرتطم بجدار الكوكب الصناعي . ثم ان عليه أن يشرب من اناء بلاستيك قابل للضغط والكبس والا خرج الماء من فتحات أنفه ! .
هذه الحالة التي ينعدم فيها الاحساس بالوزن (وهي حاسة عقلية كالابصار والشم . .) . . . هذه الحالة الرهيبة الثقيلة الوطأة قد تؤدي ببعض الناس الى الجنون .

السجون وانعدام الشخصية :

والمكوث الطويل في السجون بحد ذاته يؤدي الى الارتباك واضمحلال معالم الشخصية وربما النكوص الى دور الطفولة والتدهور الذهني والرضوخ والعجز عن التفكير الحر المستقل ويحتاج السجين الى فترة من الزمن بعد مغادرته السجن كي يستعيد صفاء ذهنه ومقدرته السابقة ، كما يحدث للدكتور (مانيت) أحد أبطال ديكنز في (قصة مدينتين) الشهيرة . . ذلك الطبيب الذي نسي مهنة الطب في سجن الباستيل الرهيب .

ويسبب ما يقارب نفس هذه الحالة الرقود الطويل في المستشفيات بسبب مرض مزمن أو لكون المستشفى ضعيف النشاط الاجتماعي أو متدني المستوى التمريضي .

كل هذه الامثلة الحياتية تشير الى أن غذاء حيويا يعيش عليه الانسان . . وهو الانتماء البيولوجي بحد ذاته دون أن يتخلله فكر أو مبدأ أو تعليم . . مجرد صلة جسمية عن طريق الحواس تربط الكائن البشري بما يحيطه من أناس وأجسام وأصوات وحر وبرد وريح ونسيم . هذا الانتماء البيولوجي مخلوق فينا . . نحياه . . ونمارسه قسرا وضرورة . . رضينا أو أبينا .

واللاانتماء البيولوجي . .

واللاانتماء البيولوجي أشبه بالمستحيل . . لانه إن وجد فمعناه أن نفترض وجود كتلة حية لا تسمع ولا تبصر ولا تتألم ولا تنشرح . فان سمعت وأبصرت وأحسست بشيء فلا هي تستجيب ولا تنفعل بما تحس . ولا يتم هذا الا في الحالات المختبرية التي يختلقها العالم النفساني لغرض الدرس والبحث ، أو في بعض الحالات العقلية المريضة مثلا . وقد جرب أحد أطباء الامراض العقلية في جامعة لندن أن يدرس مرض الفصام العقلي الشيزوفرينيا في غرف معزولة عن كل المؤثرات الخارجية فلاحظ تحسنا ملموسا في سلوكهم وأسلوب تفكيرهم . . كأن الانقطاع البيولوجي أصبح دواء لهم ، بينما كانت نفس العزلة سببا في احداث اضطراب شديد بين الناس الاعتياديين .

ان اللاانتماء البيولوجي أشبه برائد الفضاء وهو يمر بحالة فقدان الوزن ، وهذا حال لا يوجد في مجتمعنا الارضي بالطبع .

والانتماء الروحي والعقلي . .

هو عين ماقصده العلماء في قولهم إن الانسان اجتماعي بطبعه . فالانسان يستمد أسلوب تفكيره وأنماط سلوكه وحدود حرياته ومعالم القيود والمحرمات والتقاليد والمثل . . . يستمدها رويدا رويدا من أبويه وأسرته وحلقته الاجتماعية في البيت والشارع والقرية والمدينة والمجتمع الاكبر . ويتلقى الفرد تلك التعاليم سطرا سطرا ، ويحتسي الثقافة المحلية جرعة جرعة . . ويتدرج في العادات الجارية خطوة تلو الاخرى . وتبدأ حياكة المجتمع للفرد منذ أيام الطفولة الاولى . . . ولا يتضح مدى خطورتها له الا في الازمات والصدمات والامراض . فوجوده بين جماعة ينتمي اليها يجعلها تصبح غذاء روحيا وعقليا ونبعا خالدا يبعث فيه طاقات الحياة والحب والدعة والاستقرار . فبين الفرد وجماعته علاقة سلوكية وطيدة ، وتعايش حيوي مستديم . لذلك وجد علماء

النفس أنهم اذا أرادوا تغيير اتجاه الفرد الواحد ، فان من الاسهل جدا تغيير جماعته قبل تغييره هو فاذا ما حصل التحوير في الجماعة الصغيرة تبع الفرد جماعته تلقائيا . فالفرد اذن ينفذ دورا خاصا في تلك الجماعة . وهكذا اكتشف (ثريشر) مثلا أن أحسن السبل لاحداث اصلاح في جماعة من الجانحين والمجرمين يكون بتغيير زعيم العصابة وإصلاحه لكي يطرأ التبدل على الجماعة ، ومن الجماعة الى أعضائها فردا فردا ، واتبع (كرت ليفن) نفس الطريقة وأثبت أن الاتجاه الفردي يتبدل بتبديل أفكار الجماعة بصورة عامة . والعلاج الجماعي النفساني مثال على كيفية شفاء المرضى عن طريق الجماعة بالمناقشة والتثقيف والتوعية النفسانية ، وهي الطريقة الناجعة في المدمنين على المخدرات والسايكوباثيين .

فالانتماء الى الجماعة والتمسك بها يدرأ عن الفرد عديدا من المشاكل والازمات والاضطرابات النفسية ، والانصياع للجماعة والاندماج بها يخفف من القلق والتوتر الداخلي ، وقد أشار الى ذلك فرويد وأطلق عليه (فروم) اصطلاح المسايرة الآلية ودعته كارين هورني بـ (الخضوع العصابي) ، فلسان حال الفرد المنقاد لروحية الجماعة يقول : « أنا مثلك تماما . . وسأكون كما تودين أن أكون . . لكي تحبيني بدل أن تمقتيني » .

وقد تكون للفرد آراؤه ونظرياته الخاصة التي لا تنسجم كليا مع جماعته ، لكنه يتعايش في اطارها ويقف عند حدودها العامة لان أرباحه النفسية أكبر من خسائره الشخصية ، فهو اذن لايزال منتميا جزئيا الى جماعته ومقتديا بها . . وقد لا ندرك بجلاء خطورة الانتماء الا اذا تطرقنا الى بعض أمراض عدم الانتماء والتنصل ، تلك الامراض التي يعانيها اللامنتمي أثناء انسلاخه أو ابتعاده أو قطع صلته بجماعته . .

أمراض اللاانتماء . .

من المتفق عليه بين عديد من علماء النفس أن معنوية الطفل وتوازنه النفسي يستندان الى انتمائه وتماسكه مع أسرته وعلى طبيعة علاقته العاطفية مع والديه .

والبعد عن البيت والام في السنين الاولى من حياته يبعث نوعا من القلق يدعى بقلق الفراق ، كما أن البعد الطويل أو القطيعة بين الطفل ووالديه حتما يولد فيه ميولا عدائية واكتئابية ونزعات اجرامية . وهذا ما حدث لمجموعة من أطفال الحرب العالمية الثانية الذين اضطروا الى البعد عن ذويهم بسبب الغارات الجوية أو لموت أحد الوالدين أو كليهما . فتحطم العلاقة الانتمائية الاولى بالاسرة زرع في أولئك الاطفال استعدادا للاكتئاب أو المشاركة المرضية النفسانية (السايكوباثية) أو الاقبال على تناول المخدرات .

كذلك ، فان التماسك مع المجموع واحترامه والاقتداء به يقلل من وطأة الصدمات والازمات . . حتى الانتحار ترتفع نسبته بين المغتربين والمنعزلين واللامنتمين الذين وهنت صلاتهم بجماعتهم . . .

ونحن ما نفتأ نعثر على أناس يعيشون في مدن كبيرة . . يسيرون بين آلاف المارة . . يسبحون في بحار من الضوضاء والحوادث . . لكنهم مع ذلك يعيشون لانفسهم ، ويصنعون عوالمهم الخاصة ، ولا تحركهم مجريات الامور حواليهم . ونعثر على كثير من أمثال هؤلاء في المستشفيات العقلية بين مرضى الفصام ، الشيزوفرينيا . هؤلاء الذين لا ينتمون لمفاهيم العقلاء وتعاليمهم . . .

والعلاقة المهلهلة ، والانتماء الكسيح بين المحارب وفرقته وأمته وزملائه المحاربين هي الطريق الاكيد لانهزامه وانهياره . . بينما المحارب الصعب المراس يتدرع باندماجه وايمانه بمبدئه وأهداف جماعته . فهو يحارب بعزم ، ويقاوم شدائد الأسْر ومحن الاعتراف . . .

وغير هذه الامراض كثير وكثير . . نستدل منها على أن العزلة واللاانتماء ظاهرة مرض ، وأن التبعية والعيش والاحترام المتبادل بين الجماعة والفرد تعزز من معنوياته وتمده بطاقة الحياة والعمل والكفاح . فهل يوجد « لا منتم » سويٌّ بحق ؟ وماذا يمكن أن يكون ؟ .



من هو اللامنتمي ؟ . . .

هو الذي انتحى ناحية قصية من محيطه ، ثم ينظر الى جماعته . . ويقارنها باتجاهاته وميوله ورغباته ، فيقرر أن يفصم أواصره بها ، ويطمس معالمها من عقله ، ويمحو بصمات ثقافتها في روحه ويمج ما رضعه منها من مثل أو تقاليد .
وقد يفعل اللامنتمي ذلك في نوبة من تحد أو طيش أو حماقة صبيانية . . أو بدافع من الشعور بالخلو والحيرة والفوضى . . وقد يفعل ذلك لان ناحية أو أكثر فيها لا تلائم ذوقه فيتركها استنكارا ليس الا . . وقد يفعل ذلك لانه يعتقد أن عليه أن يحدث تغييرا أو اصلاحا في تلك الجماعة فيتركها فترة من زمن أو يهاجمها ناقدا . .

فاللاانتماء اذن لا يتعدى أن يكون رغبة في التعبير عن السخط والثورة ، أو مظهرا من مظاهر الضياع والفوضى ، أو رغبة في الاصلاح والتغيير . واللامنتمي يشعر « بالغربة » قبل كل شيء . . واستقلاله يتركه وحيدا . . ووحدته لا تني تقلقه . . . والقلق يصنع أشياء كثيرة : أشياء عظيمة . . أو حقيرة . .

فالمصلح يغترب ويعتزل ويفكر ليعود الى جماعته فيحاول تغيير مابها . . هو يعبر عما قاله أرخميدس يوما : « أعطني مكانا خارج الارض ، وأنا أحرك الارض » . أي أنه لاينتمي لفترة من زمن لكي يحرك ويفيد ، وهكذا يحرك الممتازون عجلة التاريخ .

والساخط والمتمرد يغترب ويعتزل . . أو يستنكر ناحية خاصة في مجتمعه ، لكنه يعود اليه ويعبر عن سخطه ولاانتمائه في « أدب ساخط » أو « فن متمرد » بشكل قصة أو بهيئة مقالة أو بديوان شعر أو بمسرحية . .

ويبتعد بعض الساخطين عن جماعتهم لمجرد نزوة طارئة أو مكابرة أو حبا في الشذوذ .

وآخرون لامنتمون ، أثارتهم النظم الموضوعة وأقلقتهم الحياة المادية وأفزعتهم الآلة والرتابة والعلوم والحروب . . وشعروا بالخواء والفراغ والضياع . . . لم يجدوا أجوبة على تساؤلاتهم ، ولم يرضخوا للاجوبة المعروفة . . ثاروا على الابوة والامومة والاسرة والمدرسة . . اعتزلوا

مجتمعهم . . وابتكروا لانفسهم مجتمعا خاصا مليئا بالغرائب والعجائب والمتناقضات : موسيقا خاصة أو لباسا متميزا أو تسريحة شعر ولحية ، أو تناول المخدرات والعقاقير ، أو سكنى بقع وأحياء منعزلة من الارض وحتى الخيم والمعسكرات . وهؤلاء هم مجموعة الشباب الساخط التائه من أمثال (الهيبيز) والبروفوك ، والخنافس ، والرولرز والبيتنك ، والقردة ، الخ . . من المسميات . ولعل أدعى شيء للسخرية أنهم لا منتمون من غير اصلاح أو نقد بناء أو فكر عميق . .

بقي عندنا اللامنتمي المصلح الهادف . . هو اذا ابتعد عن المجموع فانه لم يقطع أواصر عطفه وشعوره بالمسئولية ، وابتعاده عن المجموع ارتفاع وتحليق لكي ينظر اليه نظرة الطير من عل ، نظرة الشمول والتدقيق والنقد الرامية الى الاحسن والاصلح . .

ونعود الى اثبات ما بدأنا به في أول المقال من أن اللاانتماء المستديم أشبه بالمحال ، وأنه لايحصل الا بين المرضى أو في أروقة المختبرات والابحاث . . .

استحالة اللاانتماء . . .

انه مستحيل ، بمعنى أن اللامنتمي اذا خرج عن جماعته فلا يلبث أن ينتمي الى جماعة أخرى عندما ينفصم الفرد عن جماعته ويبتر وشائج التعاطف وروابط المسئوليات . . أو عندما يحاول قلع جذورها التاريخية فيه ، فانه لا يلبث أن يجد نفسه بين جماعة غير تلك التي تركها . . بل سرعان ما يدرك أنه خلع بزة ليرتدي أخرى ! . .

فالاديب الساخط ، والمفكر الوجودي الذي شعر وافتخر بوجوده وفاعليته وعظمته في ذاته ، راح يهتم بوجود « الاخرين » وتوسيع آفاقهم الفكرية . فهو يكتب وينتج لغيره . . وهو يتمنى لو أن غيره آمن بما يقول . . وهو يتلمس وجود الآخرين ومؤازرتهم له من خلال التلاحم والتمازج الفكري . . ولا إخاله يتمادى في نشوته وسعادته اذا أدرك يوما أنه يكتب لنفسه فقط ، وأن مسرحيته لم تمثل ، وأن مقالته اختفت في طي النسيان . فان لم تسؤه كل تلك المنغصات . . فلعله يعيش على أمل دفين هو أن الاجيال القادمة

ستهتف له . فللاديب الساخط والوجودي واللامنتمي « جماعة » ما ، في بقع من المعمورة . . وهذا هو نوع من الانتماء الى جماعة ! .

ولاعب الكرة ينتمي الى فريقه ويستمد منه الاعتداد والفعالية . . بل إنه يلعب مع رفاقه ولهم ، ويهمه الا يخيب ظنهم وظن مشاهديه وأفراد ناديه أو محلته أو بلده أو دولته . .

والمتدين المنتمي الى مذهب أو طائفة ، اذا ما رأي استبدال مذهبه ، فانه سيلجأ الى مذهب آخر أو اطار آخر من تفكير أو عبادة . والمستقل ، يجد كثيرا من غيره من المستقلين . . والمستقلون « جماعة » تلقائية . والمستقل من ناحية مرتبط من نواح حياتية أخرى لا ريب فيها . .

والصبي الشقي ينتمي الى جماعة الاشقياء من أمثاله . والمجرم يمتثل لاوامر عصابته ولا يستطيع أن يقدم على مخالفاته اللااجتماعية والاجرامية الا بتعزيز وتأييد من عصابته . حتى هؤلاء الغاضبون المتمردون اللامنتمون الذين يدَّعون أنهم قد تحرروا وحطموا القيود وداسوا على التقاليد . . أين هم الآن ؟ ان كل فرد فيهم ينتمي الى جماعة ويحتذي بها ويفخر بالانتماء اليها ، ويتلقب باسمها . وأسماء الفرق والجماعات ماهي الا أولى علامات الانتماء ، وأسماء الخنافس والهيبز والبيتنك ترمز الى جماعة معينة لها تقاليدها وعاداتها . والهيبز الفتى (أو الفتاة) يقوم بدور المنتمي للجماعة دون أن يدري : فهو يمارس طقوسها وعاداتها . . ويتناول مخدراتها . . ويصغي لموسيقاها ويتذوق رقصاتها وحفلاتها . . ويتمتع بممارساتها الجنسية . . ويستطيب قذارتها . . ويرتدي بزاتها ! ! . . . وهذا هو الانتماء بأجلى معانيه وأبشع صوره . !

وينتمي الفلاح الى أرضه . . وطالب البعثة الى وطنه وهو على بعد آلاف الاميال منه ، فالانتماء لا يعترف بالزمان أو المكان . .

أما المصلح ، أما محرّك التاريخ . . فانه ان كان قد تجرد وتباعد عن الجماعة فلكي يغير ما بها . وغالبا ما اعتزل الرسل والانبياء مجتمعاتهم لفترات متقطعة كي يتأملوا ويفكروا ويصلحوا ، فالحكيم والمصلح يقوم بدور القيادة ويخلق له أتباعا ومريدين ، وتنشأ جماعة جديدة تنتمي له وينتمي اليها . فاذا كان قد توصل الى احداث التغيير بـ « لا انتمائه » الوقتي ، فانه ما لبث أن عاد ثانية الى انتماء جديد . وكل جماعة يربو أعضاؤها على الثلاثة هي رابطة انتمائية من

نوع خاص . .

فالى أين وصلت بنا الامثال السابقة ؟ . . وصلت بنا الى أن الانتماء موجود في كل دروب الحياة وشتى ميادينها . قد يكون انتماء نسبيا أو جزئيا أو وقتيا . . وقد يكون انتماء اصلاحيا أو اخلاقيا ، أو فاسقا أو اجراميا أو ساخطا أو متمردا . . لكنه انتماء في كل الاحوال ، والانتماء تبعية ورابطة ، والتبعية ذات حدين أو وجهين : انتماء . . . . والتزام .

الانتماء . . . والالتزام :

والالتزام وجه آخر من الانتماء وزميل حميم له . فالمنتمي ملتزم ، والتزامه ضريبة انتمائه . فالحكيم والموجه الذي خلق كيانا جديدا من جماعة وأتباع يلتزم أمامهم بما دعا اليه . والمشرع الكبير الذي يضع القوانين للمجموع يلتزم بتنفيذها واطاعتها . والاديب الساخط والمسرحي العابث ملتزم بعبثه وأفكاره . والقروي الذي يقتل « غسلاً للعار » انما يلتزم بمفهوم سائد عريق بين جماعته . وعضو النادي الفلاني يلتزم بروحية ناديه وأنظمته ومقاصده إن كان ناديا للالعاب الرياضية أو للدعوات الاخلاقية . والمجرم يلتزم بخطط عصابته الاجرامية ، والشباب الخنفس أو الغجري يلتزم بعادات جماعته وسلوكها .

فالالتزام يمكن أن يكون التزاما أخلاقيا أو إجراميا أو فوضويا . . وعندما نتحدث عن « الادب الملتزم » فانما نعني به أن يؤدي الادب واجبه نحو الجماعة التي يكتب لها أو ينبع منها . وعندما يدعو البعض الى مبدأ الالتزام ، فانما يُذكّرون الغافلين بواجباتهم الطبيعية ، لان الفرد الذي يعيش بين جماعة ويحتمي بها ويعيش عليها بيولوجيا وروحيا وعقليا . . ثم يصمت ويغفل ويغفو . . انما يقوم بدور الطفيلي الذي يأخذ ولا يعطي . والتبعية التي لافكاك منها يجب أن تخرج عن نطاق الاتكال والتكاسل ، والالتزام هو العطاء مقابل الاخذ أو الانتماء . . .

بقي أن نقول إن البشرية يهمها أن يكون الانتماء انسانيا رفيعا ، وأن يكون الالتزام أخلاقيا نافعا ، ولا جدوى من ادعاء اللاانتماء اذ هو وهم يتخيله المتمردون أو الحائرون أو المتطفلون .

الرقى والتعاويذ

الرقى والتعاويذ وسائل وحيل غير طبية مختلفة الانواع والاساليب ، يستعين بها الانسان لدرء المخاطر والاذى عنه ، أو لتخفيف معاناته وعذابه من أمراض نفسية أو خبيثة . . أو لوقايته من أرواح شريرة وقوى ضارة يتوقع خطرها أو حلولها فيه والسيطرة على أفكاره وسلوكه استنادا الى عقيدة موغلة في البدائية والقدم هي أن المآزق والاضطرابات وانحرافات السلوك والفكر والشعور ـ وحتى الآلام الجسيمة والشقاءتعزى الى « أرواح شريرة » تحيط بالمصاب وتهيمن عليه وتجعله عاجزا لا حول له ولا طول ، الا اذا جابهته قوة أخرى تكمن في تعويذة أو « طلسم » أو تميمه يعدها ويصنعها شخص ذو نفوذ ديني أو سحري يدعى بصانع التعاويذ يعمل على طرد تلك الارواح المؤذية وإبعادها بعد صراع ـ قد يطول أو يقصر .

ويلاحظ القارىء أنني راعيت الدقة في التعريف للأسباب والنواحي التالية(*) ـ

أ ـ أن الرقى وسائل « روحية » غير طبية ـ أو غير علمية ، اذ لم تدخل إلى الآن في عداد العلاجات الطبية والنفسية المعترف بها . . ولانها تستخدم لعلاج شتى الاضطرابات بما في ذلك الضعف الجنسي والعشق . . .

(*) العربي العد ٢٦٢ سبتمبر ـ أيلول ١٩٨٠ م .

ب ـ وانها مختلفة الانواع : لانها كثيرة ، وتتراوح فيا بين مجرد دعاء وكلام وسطور مباركة ومقدسة ، الى أعقد العمليات المنظمة المحيرة بما في ذلك من طقوس ومراسيم . .

ج ـ وانها ملجأ جذاب (ومبهم في الوقت ذاته) للانسان الذي يعتبره حصنه الموهوم عند الاخطار والامراض أو الشعور بمداهمتها ، فهي اذن لا تقتصر على المرضى ولا تقتصر على الشخص المهدد ، بل قد تعد وتحاك ضده من قبل الاعداء والحساد ، أو « تعمل له » دون علمه من قبل ذويه ومعارفه حرصا عليه وشفاء له . .

د ـ . . وان من يصنع التعويذة والتميمة شخص مختص أو « خبير » مؤهل بالوراثة الأسرية ، أو بالتعلم المهني الخاص ، أو الممارسة الروحية ـ التصوفية الدينية ، فيكتسب مكانة ونفوذا خرافيا ساحرا قد لا يتعمده هو أو لا يرغب فيه اذا كان من نوادر من يقوم بالتعاويذ للخير والاحسان ولوجه الله تعالى لا يبتغي جزاء ولا شكورا . .

في المدلول اللغوى نقول :

عَاذَ به عوذا : أي التجأ اليه واعتصم به

وأعاذه بالله : حصّنه به وبأسمائه . . .

والعوذة : هي التميمة ،وجمعها عوذ وتمائم

وعوّذه : علق عليه العوذة . .

والرقية : يُرقى بها الانسان من فزع أو جنون

فالرقي والتعاويذ والتمائم اذن : حماية وحرز وتحصينات للانسان ضد شيء مؤذ أو خطير أو مرض جسيم . . .



جذور وتاريخ :

لعل تاريخ الرقى والتعاويذ قديم جدا لانها ظهرت قبل الطب القديم بزمن بعيد . ثم عاصرته وزاملتـه ، وتداخلت معـه في أحلاف ثنـائية من صـداقة وتعاون ، أو فترات من غض النظر والهدنة والترقب وعدم التحرش . . . ثم واجهت علم الطب والاطباء والفلاسفة والفقهاء بمواقف وأزمات عصبية تخللها سجال ونزاع وعداء سافر ـ والى يومنا هذا ، عنـدما ظهـرت بوادر وعـلائم جديدة وأحاديث خافتة هامسة حول امكانية صحة التعاويذ « معقوليتها » كما سنتطرق اليه !

ولكن ، كيف بدأت الرقى ولماذا ؟ . . هذا ما لم يدون بـدقة كـالاحداث التاريخية ، الا أن دراسة الحياة الاجتماعية كما كشفت عنها الآثار والحفريات والدراسات الانتربولوجية والتاريخية والـدراسات الثقـافية القـديمة والحـديثة (الأنتربولوجية) ألقت الضوء على سلوك الانسان القديم ومعتقداته والاطـر الاجتماعية والدينية والروحية التي كانت سائدة بين المجموعات المتفـرقة من البشر بشكل قبائل صغيرة منتشرة هنا وهناك في أرجاء المعمورة ـ ولا تـزال موجودة ـ في افريقيا وجزر آسيا الجنوبية وقد تبين أن الرقى والتعاويذ احتلت جزءا مهما من السلوك البشرى وأفكاره عن الكون والموت والحيـاة والمرضى والجريمة (الخطيئة) . فعندما كان الانسان يدقق في نفسه وفي الكون الغامض المخيف وفي الاخطار التي لا تحصى المحيطة به ، كان يجاهد لمعرفة علة الوجود وسر الخليقة ويبحث عن تفسيرات لها . وكانت المجاهيـل أمامـه كثيرة تعـد بالمئات والالاف ، الا أن ما كان يصدمه هـو المرض بشتى أنـواعه : المـرض الجسمي والمرض العقلي وما يحيط بهما من معاني الموت والحياة والخلود والعدم .

وهكذا تحتم افتراض وجود القوى الاخـرى خارج ارادة الانسـان وحسه وقواه . ولما كانت تلك القوى غير مرئية ولا محسوسة ، فقد أصبحت ظواهر روحية غامضة . فلما صمموا أن تكون ملموسـة أو مرئيـة شبهوهـا بالنصب والتماثيل ذات التعابير والاشكال الرمزية الغريبة لتكون « استعارة » ومجـازا لصورة الآلهة أو روحها ، والطوطمية ارتبطت بفكرة الخطيئة والمحرمات التي آمنت بها بعض القبائل البدائية ، والطوطم هو نبات أو حيوان أو شيء جامد

(بشكل نصب أو تمثال) تتخذه تلك القبيلة رمزا وشعارا مميزا لها (كأعلام الدول أو الفرق الرياضية المعاصرة) ، اعتقادا منها أنه يذكر القبيلة بالمحرمات وأسباب الشر والخطيئة ، كما أنه يذود عن الفرد كل خطر طالما التزم بتقاليد القبيلة .

وكانت معرفة الكهنة بعلم الهيئة (أو الفلك) واستعانتهم بالنجوم لاستجلاء الحوادث الطبيعية قد شجعتهم على استطلاع المستقبل والمصير عموما لان الظواهر ساعدتهم على معرفة الحوادث الطبيعية من مواسم وفيضانات وكسوف وخسوف وكوارث أخرى . وأصبح علم الفلك بابا الى علم التنجيم وفي خدمته ، وهكذا انسلخ التنجيم عن الفلك وأصبح فنا مستقلا بأيدي الكهنة وقراء المستقبل . واكتسب التنجيم نفوذا واحتراما بين عامة الناس لانه فتح نافذة على المجهول أو هكذا تصوروا . وما يتصوره الانسان من استقراء المجهول يبث فيه روح الطمأنينة ويهدىء من قلقه ومخاوفه .

وهكذا نستطيع أن نربط بين الفكر البدائي للطوطمة ، وكاهن المعبد والعراف وقرابينهما التي يطلبانها والعلاجات والتعاويذ ، والمنجِّم والساحر الذي يستطلع النجوم ليعرف المستقبل ويحترز من الكوارث فأصبح السحر «صنعة» خاصة بين المتطببين والدجالين الدهاة .

وانفصل السحر عن المعبد وأصبح صنعة « مدنية » ، وانتشرت الساحرات في أوربا كما ذكرنا ، وتولين اعداد الرقى والتعاويذ والادوية الغريبة والطقوس المذهلة للايقاع بالناس المساكين والبسطاء الحيارى . وما لبث الوعي العلمي والتنوير ورجال الدين أن شنوا حملة كاسحة لتطهير أوربا من السحرة ، وراح نتيجة تلك الحملات المتعصبة مئات الضحايا بحكم العدالة العاجلة أو الخاطئة . . الا أن مفهوم السحر والرقى والاساليب الروحية بقيت مغروسة وراسخة في الفكر البشري بصور سالبة أو باهتة حتى عادت بشكل موجات شاذة. واجراءات عنيدة من ممارسة السحر والنزق والدعارة والادمان كما حصل لدى جماعات الخنافس والهيز في أوروبا وأمريكا . . وظهر بين الجماعات رؤساء ادعوا السحر والقوى الخارقة !

ويبدو من كل ما تقدم أن الرقى وجدت لتطهير الانسان المريض من الروح الشريرة التي حلت فيه وسببت مرضه أو لتطهيره ووقايته من الاثم والخطيئة التي

تلبّس بهما . ولكن الاثم والدنس لم يكونا واضحى المعالم ومحددين . وسنرى كيف اختلطت المشاعر البدائية بالعقائد الوثنية ، ثم بالتفاسير الدينية ثم بالتفاسير والظواهر المرضية والطبيعية الاخرى ، لتجعل من معنى الشر والاثم والخطيئة مبهما ومتشابكا مبدد الملامح .

كان الاجداد المسيحيون مثلا يتهيأون لصلاة يوم الاحد ويتطهرون حتى بأخذ العقاقير المسهلة والملينة للامعاء وتنظيف بطونهم من الاوساخ . وكانوا اذا مكثت الفضلات في الجسم يعتقدون أنه ربما تنتقل من الجسم الى الرأس فتؤذي الدماغ . وكان يظن أن الأنثى تتخلص من الأدران بالحيض الشهري .

ظواهر انشطارية :

ومما يدفع بالانسان الى التعلق بالرقى والتعاويذ حدوث ظواهر نفسية ـ طبية غريبة كازدواج الشخصية أو انشطارها الوقتي خلال برهة سريعة من الزمن . ففي الطب النفسي هناك ظاهرة معروفة تدعى بتبدد الواقع والشخصية أو « اختلال الأنية » تحدث في كثير من أمراض العصاب والرهاب والذهان . والمثال التالي يوضح ما هو المقصود بها :

يذكر أحد المرضى بلسانه « . . كان هناك شخصان ورأيت نفسي وحدها في المرآة ولم يكن لها وجهي . . كنت أنا وليس أنا . . والذي تكلم لم يكن أنا بل شخصا آخر . . وكنت أنظر ولم تكن ذاتي الصغيرة قادرة على التحكم في ذاتي الاخرى المنشغلة بازعاج الاخرين . . كان موقفا رهيبا » .

مثل هذه الظواهر ورؤية الذات مواجهة وكأنها شخصية مستقلة متكاملة خارجيا تتخذ مظهرا أشد في حالات معينة من نوبات الصراع ومرض الفصام (الشيزوفرينيا) . وقد قتل مصاب بالفصام شخصا غريبا لم يعرفه قط وقال إنه رأى نفسه في ذلك القتيل فأراد أن يقضي « عليها » فيه . كذلك رأى (دوريان جراي) في قصة (أوسكار وايلد) نفسه الشريدة في اللوحة أمامه وكأنها تهجم عليه فمزقها ليقضي على ذاته . . . ويصور (دوستويفسكي) في (الاخوة كارمازوف) الازدواجية على لسان (ايفان) وهو يخاطب زائره الشيطاني : « . . لم أكن أعتبرك حقيقيا ولو لبرهة فأنت كذبة . . وأنت علتي . . أنت



شبح . . لا أعرف كيف أحطمك ويخيفني أن أتحملك أكثر من هذا أنت وهم أنت تجسيد لنفسي . . وبالتحديد أرذل جزء مني وأحمقه . . » ثم يعود ايفان ليخبر الوسيط متعقبا ، لكنه أنا نفسي . . كل ما هو أساسي ومحتقر ومتفسخ في ذاتي . .

ومعظم الذين كتبوا عن شخصيات مزدوجة أو منشطرة في قصصهم واتجاههم الأدبي كانوا قد مروا بتجارب ذاتية حقيقية مشابهة مثل دوستويفسكي المصاب بالصرع و (سترينـدبيرج) المتصوف صاحب القوى الروحية الاستجلائية كما يتضح ذلك في روايته (الجحيم) ، و (ادجار الان بو) المدمن على الافيون .

إن تلك الظواهر المتداولة ومعاناة عدد من الناس لها ، وفي الاخص رؤية الانسان لشبح ذاته أو ظلها أشاع الاعتقاد الشعبي بأنها من علامات الموت ، أو أن الشبح الثاني المنشطر والمشابه للذات يجب أن يموت ، وقد يتم القتل فعلا : إمّا للذات الاصلية أو للخيالية . . أو أن يكتفي الانسان باللجوء الى الرقي والتعاويذ لانه أيقن أن شبحا أو روحا لا بد موجودة وتسكن فيه والا لما غادرته .

ومرضى الوسوسة :

ومرض الوسوسة أو (الحصر ـ القهري) هو أحد أمراض العصاب الذي يصور لنا بوضوح تأثير الشعور بالاثم وعلاقة ذلك بالطقوس والرقي والتعاويذ . وتتلخص الاعراض بأن المريض تراوده أفكار تسلطية غريبة وسيئة وشاذة رغما عنه ، أو يندفع للقيام بأعمال وتصرفات يعتقد أنها سخيفة ولا مبرر لها . ورغم ذلك لا يجد مناصا من تنفيذها على سخافتها : كأن يضحك في مجلس عزاء ، أو يرتفع في ذهنه قطعة من أغنية وهو في قاعة المحاضرات ، أو يلمس أعمدة الكهرباء وهو في طريقه الى دائرته . . أو يغسل يديه كلما لمس كتابا أو صافح يدا غريبة . وقد يغسلها ثلاثا أو خمسا أو عشرا أو عشرين مرة قبل أن يطمئن ويشعر بالراحة . وهناك أعراض أكثر وأشد غرابة . . . والمهم في هذا أن التفسير النفسي « الديناميكي » لمثل هذه الاعراض أنها ردود أفعال « احترازية » دفاعية يقوم بها المريض ليشعر بالامن والراحة ضد شعور دفين « مكبوت » بالخطر أو الأثم . وقد يتولد هذا الشعور بالذنب منذ الطفولة لا شعوريا في العقل الباطن ، إما لان تربية الوالدين كانت قاسية متزمته ومركزة على النظافة والوقاية من الاوساخ والتطهير الشديد بعد أي عمل ، أو لان عقاب الوالدين لهفوة بسيطة يبولغ فيه الى حدود القسوة والعصبية ، أو لان العادات السائدة في البيت جامدة صارمة (حرفية) مقننة بحيث يجد الطفل نفسه وقد كبر وأصبح رجلا ولا يزال يشعر بالذنب لادنى سبب وأي قول أو فعل يتوهم أنه مخالف للعرف والتقاليد أو يجرح شعور الاخرين . . .
وهكذا تبدأ الوسائل الدفاعية النفسية في مرض الوسواس لتحميه من شدة عذاب الضمير أو الشرور والاخطاء ، فيلجأ الى تلك الافكار والافعال والطقوس المرضية التي ذكرناها والى تعليق التعاويذ في رقبته أو على باب داره أو احدى حاجاته ، أو استخدام أشياء منفرة وعتيقة كحذاء ممزق أو نعل فرس أو صورة عين أو رقى يعدها له متطبب أو شيخ أو سيد أو رجل دين وكلها وسائل دفاعية رمزية تعوض له عن شعور دفين بالخطيئة أو أن عملية طرد الارواح الشريرة والوقاية من غضب الآلهة الناقمة بالطقوس والرقى والتعاويذ كان يقابلها منذ القدم عمليات التملك من قبل الآلهة والارواح الطاهرة الخيرة أي أن

الجماعات البشرية البدائية ـ وحتى بعض الناس المتحضرين والمنتمين الى فرق دينية تقوم بطقوس خاصة من موسيقى ورقص وتصفيق وترتيل وصياح لاجل حلول الروح الطيبة في الفرد (سواء أكان مريضا أم شخصاً سويا يتوق الى مزيد من التطهر والتسامي . .)

ويلقب الشخص الذي تحل فيه الروح الطيبة (بالمأخوذ) ولا تزال تجري هذه الطقوس بين قبائل جنوبي السودان وفي جزر هايتي وترينداد وفي كينيا وزمبيا والبرازيل والولايات المتحدة ، حيث ينتهي الاحتفال (الديني) بالذهول والاغماء والارتخاء والاستلقاء على الارض ثم الافاقة في حالة نشاط وفعالية وشعور بالصحة والعافية والطهر ـ أي الخلاص من الادران « وامتلاك » الروح الطيبة .

وتجري الى يومنا هذا في مقاطعة (كارولينا الشمالية) في أمريكا طقوس ملامسة الأفاعي وتناولها واللعب بها ـ وبعضها سامة ـ اعتقادا بما جاء في (انجيل مرقس) من أن الايمان يحمي الانسان من الشر .

دور الأديان السماوية :

ان الاديان السماوية أنقذت البشر المهتدين من ضلالة الجهالة وأدخلت في قلوبهم الايمان والطمأنينة بعزوها ظواهر الكون والحياة والسلوك الى القوة الالهية الواحدة ، وبذلك حاربت الخرافة والوثنية والسحر والدجل . . بل شجعت بصورة مباشرة أو غير مباشرة التفكير العلمي ، وكان واضحا في الدين الاسلامي الذي لم يتعارض بجوهره مع العلم ولم يدخل في أزمة خفيفة أو كبيرة معه .

ومع ذلك ، فان بعض الافكار والاجتهادات والوقائع ـ وربما الانحرافات ـ بعد مرور مرحلة الرسل وحياتهم ، شجعت الناس على اللجوء الى الرقي والتعاويذ ، ولايضاح ذلك نذكر ما حدث في المسيحية : فالتخلص من الادران والآلام والتوصل الى الطهر والعفاف جاءت مؤكدة لفكرة الخطيئة الاولى التي انتعشت في المسيحية ودعمتها الكاثوليكية بعدئذ بالاعترافات وتوسط القساوسة بين الانسان والرب ، كما جعلت رجل الدين في مكانة العراف القديم الذي

يساعد على رفع الخطيئة وتخفيفها .

وقد ساد في الكنيسة المسيحية مفهوم امكانية طرد الارواح الشريرة من الناس الذين سيطرت عليهم . وقد طرد المسيح نفسه الشياطين بكلمة وأمر منه .

وكان ذلك علامة حلول مملكة الرب ، وتبع ذلك قانون كنسي بطرد الشياطين باسم المسيح . وفي الغرب يحتم القانوني الكنسي الحصول على موافقة الكاردينال قبل اجراء التعويذة على المصاب (وليس من الضروري تحصيل الموافقة في حالة العزائم على الامكنة) وقد تسرع وانتظم اجراء طرد الارواح الشريرة في القانون الكنسي منذ عام ١١٥١ . . وهو اعتراف ضمني من الكنيسة بأن عملية طرد الارواح تتخللها خطورة أو ينتج عنها ضرر للمصاب بالعلة . ولا يشترط في القائم على التعويذة أن يكون رجل دين أو قسيسا .

أما الاسلام ، فانه أكد على أن الانبياء بشر مثلنا ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم ليس ساحرا .وأن الشفاعة هي استرحام ورجاء من الله عز وجل . . وأن الانسان له من العقل ما يميز به بين الخير والشر . . أما الجن والشياطين فقد ورد ذكرها في القرآن الكريم . ومعصية ابليس وخطيئته الكبرى . . ثم اغواؤه هو وأعوانه من الجن للانسان أعادت للفكر البشري ذكرى الارواح الشريرة واحتمال اضرارها بالانسان والايقاع به فعلا .

وانتشرت بعدئذ عادة زيارة الاضرحة المقدسة وكذلك تقديم التبرعات والحسنات درءا لعين الحسود أو جلبا للطالع الحسن ، وتطور ذلك الى عقد الاشرطة ونتف الملابس الشخصية على جدران الأضرحة وأسوارها هنا وهناك ، والى تعليق القلائد والعلب الصغيرة الحاوية على أوراق مكتوب عليها آيات من الذكر الحكيم أو الكلام المقدس تيمنا وبركة .

ثمانية أسباب :

وهكذا نجد من محصلة الجذور الدينية والتاريخية والثقافية والدراسات النفسية والطبية الحديثة التي استعرضناها أن الانسان لجأ الى الرقى والتعاويذ ـ وكذا العزائم ـ لاسباب مختلفة .

١ ـ الوثنية الجاهلية كما نعرفها بوضوح أكثر في عصر ما قبل الاسلام عندما لجأ الناس الى الآلهة المختلفة وعبدوها خوفا أو تطيرا أو تفاؤلا ، وأضفوا على الحيوان

والجماد قوى سحرية حيوية تكمن فيها من مصائب وخير وشر . . .

٢ ـ التطير والتفاؤل من علامات ورموز وأسماء وحيوانات وظواهر تحدث في الحياة اليومية وتتوارثها الاجيال لتصبح مصدر قلق ورهبة وتثير في الانسان نوازع الحذر والدفاع والحيطة سواء بالنذور أو بالعبادة والعزائم ، أو بزيارة الاماكن المقدسة باعداد الرقي والتعاويذ من قبل شخوص متنفذة روحيا أو دينيا أو ذوي سمعة شعبية « سحرية » .

٣ ـ واستمرت هذه الافكار الموروثة على قوتها ونفوذها رغم أن الاسلام حارب التطير واعتبره النبي محمد ﷺ نوعا من الشرك .

٤ ـ ومن هذا التطير والتشاؤم ظلت الخرافات القديمة سائدة بشكل أو بآخر تتزيا بزي العصر وتحتفظ بروح القدم أو البراءة . فالشعور بالاثم والاهتمام بالظواهر الطبيعية الخارقة (الفلكية) . . والهلع من حوادث معينة كان موجودا من عهد الفراعنة والبابليين والاشوريين منذ آلاف السنين . وكان الفرد البابلي اذا شعر بخطر موهوم أو بمرض هرع الى الكاهن والمعبد ليقدم ويطلب البركة والعزائم والرقي والتمائم .

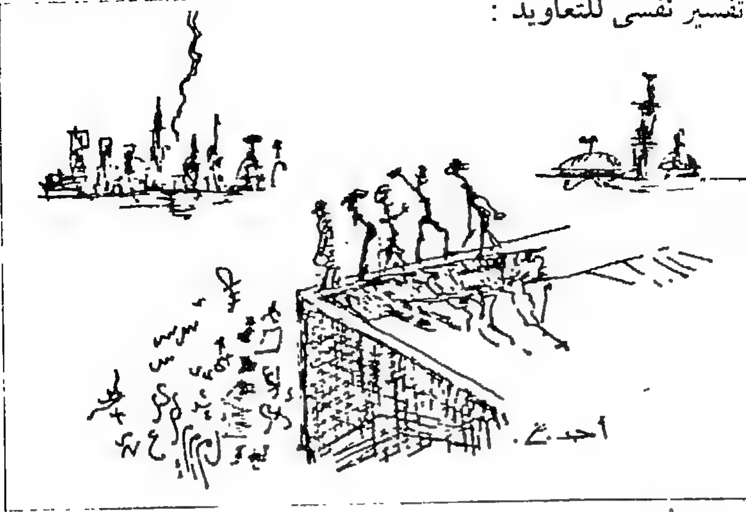
٥ ـ الخوف من المرض أو الرغبة في الشفاء لان المرض النفسي لا يزال من المجاهيل العلمية . كما أن المرض الجسمي المستعصي يثير الرهبة والوسوسة ويدفع الانسان الى الالحاح بالتفكير في أسباب خارقة وغامضة أو بعوامل شيطانية وخبيثة مرتبطة بمفاهيم الخير والشر والعقاب والتفكير .

٦ ـ وهي وسيلة للهجوم من أجل الدفاع . . أي أن التميمة قد يعدها الانسان ضد غيره لتلبسه بالمشاكل والمضاعفات فيتقي شره أو ينتقم من عدوه . وهنا يبرز دور الدعاة من السحرة والمشعوذين . . .

٧ ـ أو أن التميمة وسيلة طمأنينة للانسان تقيه الكوارث والازمات ـ لو حدثت ـ وتجلب له الخير دون أن يكون مصابا بشيء في ذلك الحين . وقد يتمادى في هذا المنحى الى العمل على احلال الروح الطيبة فيه بالجذب والتوسل والطقوس الخاصة والتعاويذ . . .

٨ ـ ولا نستغرب ، حسب نظرية يونج في علم النفس ، أن الانسان المعاصر قد يحمل كل ما ذكرناه من دوافع ويختزنها في عقل « سلالي ـ اثري » هو أعمق من اللاشعور الفرويدي .

تفسير نفسي للتعاويذ :



رغم تطرقنا الى دوافع الانسان للتعلق بالرقي فانها عسيرة ـ من حيث كيفية عملها وتأثيرها ـ على علم النفس الحديث والطب النفسي .

صحيح أن المصائب البشرية والاخطار المحدقة والمرض العقلي والنفسي تدفع الانسان المتحضر في القرن العشرين أحيانا الى البحث عن الاحتراز والخلاص في تعويذة يستلمها من صانع الرقي ، الا أن علينا تفسير ذلك في ضوء علم النفس الحديث وكيف تنجح الرقي أحيانا في شفاء البعض وهل لذلك نصيب من أي علم معروف لدينا إلى الآن أو نكتفي بذريعة الصدفة ؟

١ ـ ان دور الايحاء لا يمكن تجاهله في مفعول التعويذ . فمعروف في الطبابة أن بعض الادوية تنجح « نفسيا » قبل أن تعمل بمفعولها الكيميائي في الجسم كما أن معاملة الطبيب الانسانية وكلامه الرقيق وعطفه يريح المريض قبل الدواء ، ويمكن أن نعزو الى حمل الرقي من قبل الانسان دورا ايحائيا مطمئنا يبث فيه روح المقاومة والشجاعة واللامبالاة تجاه مسببات القلق وعواقبه الاخرى .

٢ ـ ان الرقى والتعاويذ وما يصاحب العزائم من اجراءات وطقوس تضع الانسان في موقف التوجس والترقب والتوتر الذي يؤدي الى نوع من عملية « التطهير » أو التنفيس ، أشبه بالتنفيس خلال الاعترافات الدينية أو خلال

العلاج النفسي أو حفلات الزار والرقص البدائي العنيف عند القبائل القديمة . فالتعويذة تطلق العنان للانفعالات الحبيسة ـ وبذلك يتم الشفاء . .

٣ ـ وفي أعقاب الحرب العالمية الاولى ثار الجدل بين علماء النفس (براون) من جهة و (مكدوجل ويونج) من جهة أخرى عن كيفية علاج الازدواجية . وكان المثل الذي أصبح مدار النقاش هو (ما ملأ القلب سال من الفم . .) واتفقوا أن الحادث المؤلم العنيف يؤدي الى الانشطار أحيانا وأنه يظهر في الحلم كحيوان شرس أو شبح مخيف . واقترح مكدوجل أن يكون العلاج بالتئام الانشطار وجبره واعادة المزدوج الى الواحد . وتوصل (فرويد) الى هذا الرأي قبله وذلك بتنبيه أسلوب التحليل النفسي في الكشف عن العقد المكبوتة والتطهير . ولعل في آلية التعويذة وأسلوبها من الجبر والالتحام حلا لعقدة الكبت كما يبدو . . .

٤ ـ يمكن القول أن التعويذة تنجح فقط عندما تؤدى الى نوع من التفاهم والوئام بين الشخص والاخرين الذين كان يشعر نحوهم بالغربة نتيجة شعوره بامتلاك التعويذة ، أما أنها تطرد الروح الشريرة فهو ما لايمكن التكهن به والجزم بصحته . . .

نظرة نقدية للرقى :

وبعد ، فلابد أن نتساءل عن موقف الفكر البشري من الرقى والتعاويذ وخصوصا في حقل علوم النفس والاجتماع والفيزياء . . . ؟

لقد جرت ندوة حول الموضوع في الاذاعة البريطانية عام ١٩٧٩ شارك فيها أطباء نفسيون وروحانيون وباحثون اجتماعيون ومرضى « مأخوذون » ، وما سأذكره هنا نتف مما جرى ونتف مما أرى ويراه غيري من المهتمين بالموضوع . ولنتناول الموضوع بالمنطق والحياد والعلمية المتيسرة لدينا حسب التدرج التالي :

أ ـ ان الظواهر الازدواجية والانشطارية في مجال الطب النفسي وذكر الشياطين والجن في الاديان السماوية . . والازمات النفسية الحادة . . والوسوسة الشديدة . . لايمكن أن تقنع الانسان أو تمنعه عن التفكير باحتمال وجود أرواح شريرة وطيبة . . .

ب ـ ان ممارسي الرقى والتعاويذ من الرصينين الخيرين يعتقدون فعلا بوجود الروح الشريرة ويفرقون بين ما هو « روحي » وما هو « نفسي » وماذا في جعبتنا لدحض هذا الادعاء واثبات عدم وجوده ؟ حتى العلم يعجز عن تفسير كل ظواهر الكون المعروفة والمدركة من كهرباء ومغناطيس وسرعة وحركة . . أفلا ينطبق ذلك اذن على شخصية الانسان ؟ . . .

ج ـ ان التعاويذ نقطة التقاء بين الطب وعلم النفس والدين وما وراء الطبيعة ، فهي تؤكد أولا وجود الله ، وثانيا وجود كيان غير مادى يدعى بالروح ، وثالثا أن للارواح حرية التنقل من مكان الى آخر . ولوشئنا معرفة أصناف تلك الارواح لجاز أن نقول إنها من صنفين :

ـ أرواح صرفة (نقية) كالملائكة والشياطين . . .

ـ أرواح (منسلخة) عن كيان مادي سابق (مخلوق) كانسان أو حيوان . . .

واذا جاز لنا تفسير تنقلها وتواجدها في أماكن مختلفة (ممنوعة وغير ممنوعة) فهو على نوعين :

ـ تنقل في أماكن تعاودها وتزورها وعندئذ يطلق على ذلك المكان بأنه « مسكون » . .

ـ تنقل وحلول في انسان أو حيوان . . وعندئذ يطلق على ذلك المخلوق بأنه « مأخوذ » . .

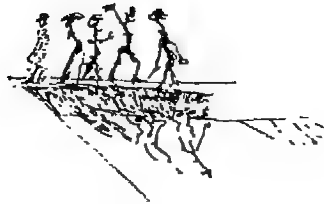
د ـ وجاء ذكر الروح والانس والجن والشياطين في القرآن الكريم ولا يمكن أن نطبق المعايير الحسية والعلمية القاصرة المحدودة على قضايا المعرفة الالهية الواسعة العظيمة . كذلك فان مسألة الحياة بعد الموت . . والبعث . . والآخرة وانسلاخ الروح عن الجسد هي أمور دينية وليست مجرد فلسفة ميتافيزيقية ، إذن لايمكن نفيها أو دحضها

ه ـ أما موقف الطب النفسي وعلم النفس فواضح تجاه الشعوذة والخرافة والدجل ، ومختبرات العلوم الطبية مشغولة بمحاولة الكشف عن تغيرات كيماوية وعصبية مسببة للمرض العقلي ودور الوراثة والجينات فيها ، فلا نتوقع منها أن تستسلم بسهولة وتعزو المرض النفسي الى الارواح الشريرة ، ففي ذلك رجوع الى نظريات وعقائد قديمة ترعرعت في مراحل غير علمية . الا أن الشيء المنطقي الوحيد الذي يربط بين علم النفس الحديث وعالم الارواح وغير

المحســوسـات هـو فـرع جـديـد دعي بعلم النفس الجـانبي أو الخـوارق (الباراسايكولوجي) لانه يبحث في قضايا الاحساس والادراك والافعال غير الاعتيادية كقراءة الافكار (التخاطر) ورؤية الاشياء على أبعاد شاسعة والتنبؤ بالمستقبل وتحريك الجماد عن بعد . . الخ . .

و ـ لذلك يعلق بعض علماء النفس على قضايا الارواح ووجودها بأنها قد تكون ميدانا آخر يشابه الباراسايكولوجي ، وأننا لانعرف عنه ما فيه الكفـاية ، ولا يمكننا نفيه قطعا . فالحقيقة أكبر من حصرها في اطار معرفتنا الحالية ، والقوانين المتعارف عليها هي ليست كل القوانين ، ان البعد المادي والقياس الحسي ليس البعـد الوحيـد . واذا كانت الامـراض النفسية والعقليـة مسميات وعنـاوين لاعراض وظواهر ، فلماذا لانعترف بأننا نجهل حقيقة ما يجري داخل العقل ولمـاذا لايجـوز الحـلول الـروحي في الـشخـصيـات المـزدوجـة أو ذوي الوساوس ؟ . . .

كل هذه الملاحظات النقدية الهادئة يجب ألاّ تقلقنا من ناحية ولاتقعدنا عن مواصلة البحث العلمي أو التساهـل في محاربـة الدجـل والخرافـة من ناحيـة أخرى ، لأن المنهج العلمي لايتنكر للظواهر الشـاذة أو غير المـألوفـة فورا ، وانفعالا ، ولا يتجاهلها تغابيا وعجزا . . . لكنه ككل تنظيم وتشريع حضاري معاصر يحارب استغلال الانسان للانسان بحجة احتمال « شيء » في خدعـة الناس بالرقى والتعاويذ . . . ولايمكن أن نسترسل أكثر من هذا ، فما هو مجهول أكثر بكثير مما هو معروف في هذه المجالات .



في زمن الإدمان على الضجيج

كشفت التنقيبات الاثرية في وادي الرافدين أن بعض الالواح الطينية قد كتب عليها بالخط المسماري وصف واضح للحياة التجارية الحافلة في مدن سومر وبابل .

ويشكو أحد الالواح بلغة تدل على الملل والسأم من تلك المدينة التي تعج بضوضاء الانسان . . !!

(ول ديورانت)

تدل الدراسات الانتروبولوجية والطبية ـ البيولوجية أن الانسان يتغير بمرور الزمن : حجمه ،ووزنه وشكل جمجمته ، وتقاطيعه ، وطوله ، وتوزيع القوى في عضلاته ،والمتانة في عظامه ، كماتتغير فيه بعض التفاعلات الكيماوية والعلاقات الهورمونية الداخلية وبعض المواقيت والدورات لوظائف أعضائه وأنسجتها .

وليس أدل على ذلك من مقارنة جمجمة الانسان القديم وشكله ـ انسان الكهوف ـ في العصور الحجرية ، وانسان القرن العشرين بنعومة بشرته ودقة سحنته وقلة شعر جسمه ورأسه وحتى هشاشة أسنانه ، إضافة الى استطالة قامته وخفة وزنه . وينطبق ذلك على الجنسين معا ، فالبلوغ الجنسي يتقدم مرحليا

العربي العدد ٢٦٩ ابريل ـ نيسان ١٩٨١ م .

بالاشهر والسنوات ، وموعد بدء الحيض عند الانثى أصبح يبكر تدريجيا في شمال أوروبا وأمريكا ، وبات من المألوف في هذه الايام أن نجد الفتاة في العاشرة أو الحادية عشرة من عمرها ناضجة « بيولوجيا » للزواج والحمل رغم أنها ليست جاهزة نفسيا واجتماعيا .

هذه المقدمة لا بد منها للخوض في موضوع حديثي عن أشياء أخرى وظواهر تتعلق بالسلوك الانساني المكتسب ، أي بالاشياء والافعال ذات العلاقة غير المباشرة والحيوية واللصيقة بتركيب الانسان وبنيته الفطرية ، لكنه اكتسبها وتبناها بحكم المخلوق المتطور فانعكست وبرزت في حاجاته وعاداته وتصرفاته .

ونظرة متفحصة الى انسان العصر تؤكد دون جدل أن « الاساسيات » والاوليات القديمة أصبحت الآن ثانوية كمالية ، والكماليات منها أصبحت أولية أساسية ، أي أن ما تعارفنا عليه بالكماليات هو بحكم الواقع من الضروريات : كالثلاجة والتلفاز والمذياع والسيارة وأدوات الزينة والماكياج وتغيير الازياء ، فقد أصبحت بالحقيقة تحتل الاهتمام الاول والمرتبة الاعلى من آمال الشباب والفتاة ومطالبها وطموحاتها .

ضرورة الصوت :

هذه الظواهر « الانقلابية » المعكوسة بدأت تتطور وتمتد الى أبعد من ذلك فتسيطر على جوانب مهمة من حياتنا الاجتماعية . وقد اخترت ظاهرة الضجيج والصخب كمثال قريب وطريف على ذلك ، إذ سنرى أن الصوت كان وما يزال من الضروريات . . فلما توغل الانسان في المدنية وارتقى سلم الحضارةاذا به يتوقف ويتردد تجاه بعض الاصوات ثم يتنكر لها ويتحاشاها ، أي أن الضروري أصبح كماليا ومصدر إضرار وإزعاج . . !

لا بد من ذكر حقيقة علمية أولا قبل الخوض في الموضوع ، وهي أن الصوت ضرورة أساسية لتربية الانسان ونضجه وتطوير عقله وفكره . والطفل الذي يُخلق أصم لا يسمع ، لن يتمكن من النطق والكلام . وأغلب ما يكون الاطرش أخرس أيضا ، لان الاصوات التي يسمعها الطفل منذ الايام والاشهر

الاولى لولادته تدخل في جهازه العصبي ودماغه فيتعلم بها تدريجيا ودون عمد ويستقبل الاصوات والحروف والجمل ويميزها ثم يتعلمها ويدركها . . ثم يفرزها ويصنفها ، وبذلك يميز صوت أمه عن أبيه وعن اخوته فردا فردا . . كما يدرب نفسه وهو ينمو كل يوم على لفظ الحروف والكلمات ويتأرجح بين الخطأ والصواب ليستمر على النطق واللفظ الصحيح والتفكير ، وليربط الرمز بالمعنى . . وهكذا ، وبالاختصار فان الانسان يسمع الاصوات أولا لتكون مادة معرفية يتعلم منها و « يصنع » الكلام والكتابة والتفكير . فالصوت أحد أركان اللغة ، وحجر زاويتها . ويجب أن يكون مسموعا ليكون ذا فائدة ، وعندما يصاب طفل بعاهة في جهاز السمع - أي عندما كان يسمع ثم تعرض وهبط سمعه ثم توقف ، فان علم الطب يحاول أن يعيد اليه سمعه الصحيح ليستعيد قابلية الكلام والتفاهم والا أصيب باللثغة واللكنة .

فأمراض السمع تؤدي الى أمراض الكلام واضطرابات التعبير وحتى التفكير .

الصوت قبل الكلام :

الصوت يأتي اذن قبل الكلام . . والاصغاء قبل التعلم ، وهذه قاعدة الخالق في خلقه . الصوت بلغة الطب (غذاء) أساسي للجهاز العصبي والعقل البشري مثلما تعتبر البروتينات والكربوهيدرات والشحوم والماء والهواء أغذية لجسمه . وبما أن الصوت غذاء فكري فهو حافز ومثير لنشاط الجهاز العصبي ، اذ بدون الاصوات يحس الانسان بالعزلةكمايبدأ في تفقد كيانه ووجوده . وكأن الصوت هو مصدر حيوي لكمال شخصيته ولادراكه تلك الشخصية ، وما يتلقاه الانسان من ضروب المعرفة وما يصادفه من الآلاف وملايين التجارب يتلقفها العقل البشري من منافذ الاحساس لديه وهي : السمع والبصر واللمس والشم والتذوق . . الخ فالسمع اذن - والصوت لازمة له - مصدر أولي وأساسي للمعرفة ولنضج العقل البشري وتطوره .

وتقدم العلوم النفسية - الطبية أمثلة وبراهين على أهمية الصوت للحياة النفسية - من فكر ووجدان للانسان : فقد تبين أن الانسان السوي الصحيح قد

تنتهي به دروب الحياة الى الوحدة وفقد الاحبة والمعارف فتضيق دائرة تواصله مع الدنيا والجماعة فاذا به يعاني من الضجر والكآبة والقنوط وتمنى الموت ، أما اذا تعرض الانسان - في أية مرحلة من عمره - الى عزلة قسرية اضطرارية بحيث لا تصله في صحوته الا أقل الاصوات واضعفها أي الهدوء والسكون الطويل الاجباري فانه يبدأ بالشعور بفقده جزءا من معالم شخصيته لان الصوت يحفز جهازه العصبي دون وعي منه ، وباختفاء تلك المنبهات الصوتية أو فقدانها يشعر بالوحدة والملل والقلق . . ثم الكآبة . . . ثم يدخل تدريجيا في جو من الاوهام والهلوسات . . يتسمع الى دقات قلبه وحركات أحشائه التي تتعالى درجتها في جهازه الفكري . . ثم يتصور نفسه في مواقع أخرى . . أو يتخيل سماع وقع خطوات انسان أو حيوان يقترب منه . . أو صوت نداء يخاطبه أو هدير آلة حوالي غرفته . . . وتختلط عليه الهمسات والصرخات والازيز والضجيج فينتقل الى عالم الجنون محاولا بعسر ألا يفقد عقله وهذا ما يحدث في السجون الانفرادية والزنزانات المعزولة .

وفي علم الطب النفساني نعثر على حالة مشابهة ، فقد تبين أن بعض الناس الذين تجاوزوا أواسط العمر وبدأوا في شيخوخة مصحوبة بثقل السمع أو الطرش ، تنتابهم مشاعر العجز والحساسية الشديدة لمعرفة الاصوات وما يقوله الآخرون ، ويعاني بعضهم من الوساوس والشكوك وبشعور بالاضطهاد والغبن والتفاهة . ثم يردون على ذلك بالعداء والكره لاقرب الناس اليهم ، وهي من صفات (ذهان زَوَر الشيخوخة) أو (البارافرينيا) .

كل هذه الظواهر تؤكد كيف أن الاصوات هي روابط عضوية - نفسية بين المخلوق ومحيطه ومجتمعه ، وانها أسس معنوية لتماسك وجوده وذهنه ، بقي أن نذكر أن الاذن البشرية تتلقى الاصوات من كل حدب وصوب ، وقد تسمعها ولا تسمعها لان قابليتها محدودة بين ذبذبات صوتية معينة هي من ١٦ - الى ٢٠ ألف هيرتز (ذبذبة في الثانية) .

فالصوت الذي يقل عن (١٦) ألف ذبذبة أو يزيد على (٢٠) ألف ذبذبة قد يدخل في أذن الأنسان ولكنه لا يحس به ولا يدركه كصوت .

وهكذا هي الاذن البشرية ظلت في نطاق معين ولم تتغير إلى الان - أو على الاقل حسبما يقوله العلم الحديث .

أصوات المدينة والحضارة :



وكان الانسان القديم البدائي يسمع أصواتا لا تتعدى زمجرة الريح وصفير العواصف ودويّ الرعد وزقزقة الطيور وخرير الماء وحفيف الاشجار وأصوات أسرته أو عشيرته ، وأصوات الحيوانات المختلفة فيشعر بوجوده وكيانه ، وتقول إحدى نظريات أصل اللغات إن الانسان بدأ يتكلم بأصوات ومقاطع تقليدا لما تسمعه أذنه من أصوات الموجودات الطبيعية حوله ، وهكذا استمر الانسان يسمع أصوات بنى البشر مثله ويبادلهم الاشارة والحديث ، ثم استمر في النقش والرسم ثم الكتابة ، وتفتح ذهنه فأبدع واخترع . وبالاختراع والتصنيع وتطور الزراعة وحجم القبيلة والقرية والبلدة . . امتدت الحضارة والمدنية واتسعت وبدأ الجنس البشري يسمع أصواتا جديدة أخرى : من حركة المحراث والاجراس وطقطقة مطارق النحاسين والحدادين . . ودقات الطبول ورنين الاوتار . . أو السيوف . . ثم المنجنيقات فانفجارات البارود والطلقات والقنابل والالغام . . ثم ضجيج المكائن الطباعية والنسيجية ، فالقطارات والعربات والسيارات . . ثم الطائرات والصواريخ . واذا باذنه تصبح فوهة بركان يدخلها (بدل أن يخرج منها) سيل عارم من أصوات المصانع الهائلة

الكبيـرة للورق والسكر والاسمنت والنسيج والمعلبات والموانيء والبواخـر والمطارق ، وحوصر الانسان في دور سكناه وطرق مواصلاته . . وانتبه الى أن ما اخترعه وأسسه وبناه بدأ ينفث سمومه وأضراره . . .

ان الحضارة البشرية تقدمت ، لكنها اصطحبت معها الصخب والضجيج في كل مكان ، وأصبح الهدوء والصفاء والنقاء مقتصرا على الريف فحسب ـ وان كان هدوءا نسبيا اذا ما قورن بهدوء القرون الغابرة ـ لكن الريف بدأ ينحسر بسكانه ويتقلص بمساحاته ، واستمرت موجات دافقة متوالية من البشر بالهجرة من الريف الى المدينة ، فكثرت المدن واتسعت وتعددت أحجامها وانتشرت في كل مكان ، وفي المدينة وما حولها نجد مصادر للاصوات المختلفة وهي تتكاثر وتتعالى في المصانع والحافلات والقطارات والسيـارات ومكبرات الصـوت ، وأصوات المذيعين والمغنين والخطباء . . ثم صفـارات سيارات الاسعـاف أو الامن الداخلي . . ثم الطائرات . .

فاذا ما هرب الانسان من كـل ما تقـدم ولجأ الى داخـل البيت المنعزل « الآمن » هاجمته أصوات من نوع آخر لا تخلو منها أية دار عصرية . فشباب الجيل الناشيء قد تحكم وتوسع بمسجلاتـه (الستيريـو) ومكبرات الصـوت وعلب الاشرطة (الكاسيتات) التي تعج وتصرخ بموسيقى الخنافس (والروك آندرول) وفرق (سـانتانـا) و (الحيوانـات) و (الوحـوش) و (الرولنـج ستون) و (بوني ام) وما الى ذلك من تسميات لفرق الشباب المنتشرة في دنيا الغرب .

حضارتنا غدت الآن مجموعة أصوات مختلفة الانغام والشـدة : بعضها منتظم وبعضها مزعج ومنفـر ، لكن المحصلة الكليةخليط منكـر من صخب وضجيج يحيط بالانسان ويلاحقه حتى فراش نومه ان لم يكن حتى قبره .

فماذاجرى للاذن البشرية وللدماغ المسكين ؟ وما هو تأثير الصوت على الجهاز العصبي والسلوك ؟



أضرار الضجيج والصخب :

ويتبادر سؤال ملح الآن : اذا كنا نعتبر الصوت غذاء ضروريا للعقل البشري والتجارب والمعرفة كما بينا ، فلماذا نتبعه بالحديث عن أضراره ؟ وهل له مضار حقيقية ؟ ولماذا انعكست الآية في القرن العشرين بحيث اضطر الانسان الى النفور والضجر منه ؟ . . . .

ان الصوت بلغة علم الفيزياء ، هو ذلك الذي له صفة الانتظام وطابع الموسيقية أوالتناسق . وارتفاع شدة الصوت يمكن أن يكون مصدر ازعاج وضرر . أما الضجيج والجلبة والصخب فهي مجموعة أصوات « نشاز » غير منتظمة أو منسقة ، وهي أيضا مزعجة وضارة للنفس البشرية ، واختلاط صوت بصخب يؤدي الى صخب أكثر وأفظع وأمرّ ، والذي يجري الآن في مدينتنا أن الانسان أصبح مغمورا بالجلبة والضوضاء ، وأن الصوت المطرب أوالناعم أو المنسق الجميل لا يجده الانسان الا اذا قصده قصدا ، وبحث عنه في أماكن ومواقف ومناسبات معينة ، وهو ينشد الهدوء والسكينة .

ان الانسان المعاصر انتبه وأدرك بطبعه الاصيل وبدون نصيحة طبية أن الضجيج يثير أعصابه ويربك أعماله ويعكر عليه صفاء ذهنه وانسجام سلوكه ، ويبعث فيه القلق والضجر والشقاء . فماهو رأي الطب وعلم النفس والاجتماع في صحة هذا الحدس ؟ تشير الدلائل في مجتمع القرن العشرين الى ظاهرة محيرة ومتناقضة ، وهي أن الانسان في مراحل تطوره الحضاري تعود دون أن يدري ـ وبالتدريج ـ على تقبل المزيد من الاصوات والنغمات ذات الشدة العالية فاذا به وقد أصبح « مدمنا » على الضجيج . وهذه هي العادة المكتسبة من المدينة بحيث خيل للانسان أن الصوت المرتفع ضرورة ، واذا به يتعود التحدث بصوت مرتفع وأنه يتحدث الى ثقال السمع بينما هو يقارب ثقل السمع حقيقة !

وهكذا يملأ شباب اليوم الامكنة والبيوت والنوادي والمراقص والسيارات بأعلى أصوات الموسيقا المجنونة الراقصة وينغمسون فيها انغماس المدمن المتعش بينما يلجأ الجيل السابق الى خفت صوت المذياع والتلفاز للتمتع ببقية من موسيقا خافتة هادئة وكلام هامس رقيق ، لكن الامر لم يقف عند حدود الصراع أو المجابهة بين جيلين أو ذوقين بل أصبح مشكلة عامة .

وقد كشفت الابحاث الطبية والنفسية،أن الاصوات العالية وكل ما يدخل في تكوين الصخب والضجيج تؤدي الى مجموعة من التأثيرات الضارة على أجهزة الجسم ونفسية الانسان ، حتى أن الاصوات العالية استخدمت احيانا في سحب الاعترافات ومضايقة السجناء والمعتقلين ، فالصوت الصاخب الناشز يوجه اليهم ليتهيج جهازهم العصبي ، ويتقطع النوم أو يختفي تماما ، وتتضاءل فترات الراحة ، وينحدر السجين الى حالة الاعياء فالانهيار ، ومنها يتسلل المحقق الى مدخل الاستسلام أو حالة (غسل الدماغ) والاعتراف .

ويمكن تعداد مضار الاصوات الشديدة وتلخيصها كما هو مبين أدناه وحسب تسلسل درجة علو الصوت بمقياس وحدة علو الصوت (ديسبيل) ابتداء من الرقم (٣٠) وحتى ال (١٢٠) أو أكثر :

أ ـ استثارة القلق وعدم الارتياح الداخلي فالتوتر فارتباك في الانسجام والتوافق الصحي المريح .

ب ـ اذا كان الشخص من ذوي الاستثارة السريعة ، تحدث اضطرابات فكرية في قوى التركيز والتذكر ، وتوتر عضلي في الاجهزة الداخلية الحساسة وعلى الاخص أعضاء الجهاز الهضمي : المعدة والامعاء ، وكذلك جهاز الدوران (القلب) والتنفس .

ج ـ احداث أضرار وتلف بطيء وتخريب في جهاز السمع ، وهي الخلايا الحساسة في نهايات أعصاب المخ المرتبطة بالاذن الداخلة التي تنقل الصوت الى الدماغ ، وهكذا الى حالة من ثقل السمع البطيء السريان والى الطرش ، ولعل ثقل السمع الاوّلي هو الذي يدفع بالمصاب الى الاستزادة من علو الصوت لعدم ادراك الانسان أن سبب ثقل سمعه هو علو الصوت ذاته ، وهذا يفسر ميله الى التخاطب بصوت مرتفع كما يفعل ثقيلو السمع .

د ـ يعتقد باحثون آخرون أن التخريبات الحاصلة في الاذن الداخلية أشبه ما تكون بالقروح التي تحدث في أجهزة أخرى .

هـ ـ ان خليط القلق والتوتر والصداع والارق يضعف من مقاومة الانسان الذهنية وتماسك شخصيته ، وهو السبب في حصول الاعترافات لدى السجناء

و ـ ان التوتر العام المستديم يؤدي منطقيا الى مضاعفات أخرى مثل القرحة المعدية أو الذبحة الصدرية .. وهذه تؤدي بدورها الى مضاعفات أخرى ...

صراع وحيرة :

هـذه هي أضرار الاصـوات العاليـة الصاخبـة . . وتلك هي سلبيات الصمت والسكون الثقيل ، كماذكرنا في أول المقال ، فأين يجد الانسان راحته ويعيش نعيم أحاسيسه ؟ . . .

ان انسان اليوم ـ وهو الذي لا يستغني عن الصوت كغذاء حياتي وفكري ـ يعيش الآن بين نقيضين أو وجهتـين : صخب وضجيج يقلق راحتـه ويخرب أعصابه ، أو هدوء وعزلة قاتلةثقيلةفي مراحل الشيخوخة وفقد المعارف والاحبة بعد التقاعد ، وفي كلتا الحالتين يتهدده شعور بالخطر الداهم على راحته النفسية وانسجام تفكيره وسعـادته الـدنيويـة . انه الآن مـوزع بين (ضـروريات) الصوت الطبيعي وبـين (كماليـات) الصخب الحضاري المؤذي . لكنـه بدأ يتململ ويستنكر ويثـور ويتظاهـر مع الجمـاعات الغـاضبة ضـد المـطارات الضخمةالتي تنطلق منها وتحط عليها الطائرات النفاثة الضخمة في أمريكا وفي ألمانيا الغربية وفرنسا واليابان . . .

لقد انتبه الانسان أخيرا ـ دون تحريض الطب وعلم النفس ـ الى أن ما اخترعه وأسسه وبناه بدأ ينفث سموحه وتخريباته ، وقد تجسد أمـامه غـول (تلوث البيئة) كحقيقة واقعة لا نريد الخوض في تفاصيلها ، ويبدو الآن أن الصخب والضجيج هما أيضا من المعضلات و (مخلفـات) المدينـة التي تهدد الصحة البشريـة . ولعل من الـطريف أن نستطلع حـال الانسان قبـل آلاف السنين . فمنذ خمسة آلاف سنةمضت ، وفي احدى الحضارات البشرية العريقة في جنوب العراق (سومر وبابل) تتحدث الحفريات الاثرية عن ذلك الانسان الذي أزعجته المدينة بصخبها وضجيجها ، وكأن سليقته وغـريزتـه الصافيـة أرشدته الى الآثار السيئة للاصوات الناشزة والعالية . .

وفي ملحمة (اترا ـ حاسس) نعثر على قصيدة بـابلية مـطولة تتنـاول بالتفصيل خلق الانسان وتسليط الالهة ـ وعلى رأسهم الالّه (انليل) ـ كارثـة الطوفان والقحط والامراض لافناء البشـر الذين (أقلقـوا الآلهة بضـوضائهم وصخبهم) على حد تعبير الملحمة



ومع أن اصطلاح « الضوضاء والصخب » دليل على شرور الانسان ونزاعاته . . ، الا أن غضب الآلهة واجراءاتهم بتقليل عدد البشر يدل أيضا على أن كثرة السكان هي من عوامل الصخب والضجيج الذي يقلق راحة الآلهة منذ بداية التاريخ المدون .

وبعد كل ما تقدم أليس من المنطقي أن نتساءل أو نؤكد على اعتبار الضجيج والصخب جزءا من عوامل تلوث البيئة رغم كونها مجرد ذبذبات صوتية ؟ ! .



الفصلُ الرّابع

العلم وتطبيقاته الإنسانيّة :



غسـل الدمـاغ !

« غسـل الدمـاغ » اصطلاح حـديث يتردد استعمـاله كثيـرا في السنوات الاخيرة ، وان كان يجري حدوثه منذ أقدم المجتمعات البشرية . وهو اصطلاح يوحي للرجل العادي بأنه عملية « غسل » أو « تنظيف » للدماغ البشري بطريقة ما . وربما يشتط به الخيال الى تصور « مادة منظفة » لها القدرة على تخليص الدماغ من شوائبه أو أمراضه !! وهنا وجه الغموض وعدم الشمـول في هذا الاصطلاح ، وكثير من المصطلحات الاخرى ترددت وشاعت على الرغم من نواقصها . . ربما لسهولة في لفظها ، أو لطرافة في معناها أو ليسر في فهمها ، أو لمجرد أنها ترددت فأصبحت مألوفة اكثر من غيرها . . وفي كل ذلك ما ينطبق على اصطلاحنا هذا .

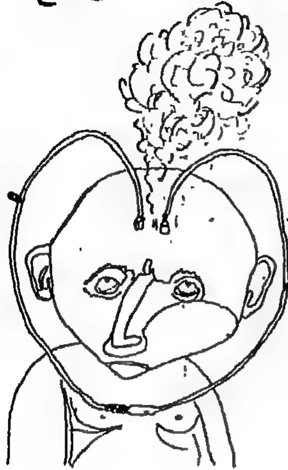
ولكن لغسل الدماغ مرادفات علمية أخرى أدق تعبيرا وأوضح معنى . . . . ومنها « المذهبة »أو « غرس العقائد » . . ومنها التحويل الفكري وسنأتي على شرح أهمية هذه الاصطلاحات فيما بعد . .

وعملية غسل الدماغ وان كانت قديمة ، فان أسسها العلمية لم تصبح واضحة الا في أوائل الثلاثينيات من القرن الحالي ، وكان ذلك على خطوات ودروس

العربي العدد ١٠٨- نوفمبر ـ تشرين الثاني ١٩٦٧م .

متعاقبة وقبل أن نعرف ما هو « غسل الدماغ » و « الاقناع الخفي » يجدر أن نعرف الاسس العلمية التي انبثقت عنها هذه العملية في الدماغ وعلى الدماغ . ولم نقل على الدماغ « البشري » . . لان الخطوة الاولى قد بدأت على دماغ حيواني . .

الدرس الاول . . من الحيوان . .





. . كان ذلك في عهد العالم الروسي الشهير (بافلوف) (١٨٤٩ - ١٩٣٦) الذي كان رائدا في ميدان الفسلجة والعصارات الهضمية والانعكاسات ، وحائزا جائزة نوبل (١٩٠٤) وكان يجري تجارب كثيرة على الكلاب والاغنام وغيرها . . ويدرس الانعكاسات الغريزية فيها من جوع أو عطش بالنسبة لظروف اصطناعية يجابهها بها . . ثم يبني على تلك الغرائز الاولية انعكاسات معقدة أخرى - أي يغرس فيها عادات جديدة لم تكن تعرفها تلك الحيوانات .

وفي احدى غرف مختبراته في (لينتجراد) كانت هنالك مجموعة من الكلاب ذوات العادات والانعكاسات المستحدثة التي تعلمتها بالتجربة . . وكانت الكلاب في أقفاصها عندما حدث فيضان (لينتجراد) الشهير سنة ١٩٢٤ . وانساب الماء من تحت أبواب المختبر وارتفع في أقفاص الكلاب السجينة حتى بلغ رقابها . . فتملكها رعب واستبد بها الهيجان . . وكادت ان تموت غرقا لولا قدوم أحد مساعدي (بافلوف) في اللحظة الاخيرة فأخرجها ونقلها الى محل أمين . .

جاء (بافلوف) الى كلابه بعدئذ ليكمل تجاربه لوجد أن غالبيتها قد نسيت أو فقدت العادات التي تعلمتها ، وأصبحت في حالة مشوشة ، وكان خلايا دماغها قد « غسلت » أو نظفت من كل التجارب التي كان قد أجراها عالم الفسلجة والامراض النفسية ، حقيقة جديدة هي أن الحيوانات تتعرض للقلق والعصاب ، وهو ما دعي باسم « عصاب الحيوان » . وأصبحت تلك الواقعة النواة العلمية لعلم نفس تجريبي حول العصاب . . وأطلق على العصاب الناتج عن تجربة مصطنعة اصطلاح « العصاب التجريبي » .

وأصبح بالامكان خلق ظروف واصطناع حوادث مهددة أو مثبطة (كفيضان لينتجراد) لاحداث حالة من التهيج العقلي أو العصاب أو بالاحرى « غسل دماغ » للحيوانات تحت التجربة من فئران أو أرانب أو قطط أو قردة . .

الدرس الثاني . . على الانسان :

واتضحت لدي علماء النفس ظواهر مشوقة جدا عن العقل البشري كانت الحجر الاساسي لنظرية في علم نفس الشخصية والتعلم . . وهي أن الانسان يمتلك انعكاسات وغرائز بدائية « خلقية » . . ولكنه في كل لحظة من حياته يمر بتجارب ويتعلم دروسا هي بمثابة لبنات في بناء شخصيته وتفكيره أي أنه يبني فوق انعكاساته البدائية انعكاسات جديدة أخرى وعادات حديثة يكون لها الاثر الكبير في أسلوب تفكيره وعقيدته واتجاهاته في الحياة . . .

ولكن هذه العادات والافكار المكتسبة ليست ثابتة وليست خالدة . . فهي عرضة للاهتزاز أو التفتت أو الاضمحلال ، ومتى يحدث ذلك ؟ . . في الحالات التي يتعرض فيها الانسان الى ظروف قاهرة صعبة تجعل جهازه العصبي في حالة من التوتر أو الحساسية الشديدة أو التثبيط الحاد . . وفي هذه المرحلة الحرجة تصبح خلايا دماغه عاجزة عن الاحتفاظ بما اختزنته من عادات ، بل قد تصبح شبه مشلولة عن العمل والمقاومة . . بل إن مقاومتها للأذي والتهديد الواقع عليها قد ينقلب الى تقبل أشد واستسلام أسرع لعادات جديدة أخرى وانعكاسات غريبة قد يتصادف حدوثها في تلك الحالة .

اذن ، فالانسان ـ كحيوان المختبر ـ يتعلم ببناء الانعكاسات واحدة فوق الاخرى ، وأنه يمكن أن تتداعي تلك الانعكاسات أو تضطرب وترتبك في حالات التوتر العصبي أو « العصاب الحاد » الذي ينتج عن عوامل مهددة أو حوافز مرهقة متكررة تهز جهازه العصبي وتجعله كريشة في مهب الريح ، لا حول له ولا طول ، ، ، وعندئذ « يغسل دماغه » من أفكاره القديمة واتجاهاته وميوله . . ويصبح قابلا للايحاء وفريسة لتعاليم جديدة . .

الدرس الثالث . . من الحياة :

ورجع علماء النفس الى المختبر الكبير بعد أن كانوا يعملون في المختبر الصغير . . ورجعوا الى الحياة وتاريخ البشرية ، فوجدوا أن « العصاب التجريبي » و « غسل الدماغ » الناتج عنه قد حدث ويحدث في مواقف عديدة من عمر البشرية . وكان أقرب مثال لهم الحربان العالميتان الاولى والثانية . فهنالك . . في ساحة المعركة أصيب جنود وضباط بحالات تهيج عصبي وعصاب حاد أفقدهم توازنهم المعروف وشجاعتهم المسلم بها ، وأصبحوا في حالات من ذعر أو ذهول أو أعراض جسمية غريبة ، وكأن تلك الظروف الحرجة أربكت حواسهم وجعلت من سلوكهم نماذج طفولية فجة أو سخيفة . وتبين بأن لحظات معينة أو ساعات خاصة أثناء المعركة أوصلت جهازهم العصبي الى تلك الدرجة من التحفز والتهيج فالانهيار ، بحيث « غسلت دماغهم » من تلك العادات (والانعكاسات) و (المعاني) الحضارية المكتسبة التي تعلموها كالثبات والاتزان والحكمة والشجاعة . وقد أطلق على هذا النوع من العصاب اصطلاح (عصاب الحرب) ، أو (صدمة القنابل) أو (إعياء المعركة) .

ورجع الباحثون من قرنهم العشرين الى مئات السنين الغابرة . . ووجدوا بأن المعركة والمواقف الدقيقة قد فعلت نفس فعل الحروب الحديثة . ويذكر المؤرخون عن جيوش القيصر الروماني الذي كان يمتلك فصيلة من نخبة الشجعان المحاربين من حاملي الصقور . . وكيف أن بعضا منهم بعد سنين طويلة من البلاء الحسن والشجاعة انهاروا فجاة . . فترك أحدهم الصقر بيد

القيصر وهرب ، وهَمَّ الآخر بضرب القيصر نفسه عندما اعترض طريقة . .

وفي أثناء الغارات الجوية الشهيرة على لندن في الحرب العالمية الثانية بلغ الارهاق والتوتر العصبي لدي الناس مبلغه وان كانوا في منتهي الصبر . . وكان التهديد المتكرر المتواصل قد أوصل عقول بعض العامة الى « الحافة الحرجة » الى موقف العصاب الحاد و« غسل الدماغ » فأصبحوا في وضع تقبل الايحاء ، وكان الايحاء الخطير في ذلك الوقت هو « الاشاعات » التي تنتقل من فم الى فم أو بالاحرى من عقل مغسول الى عقل مغسول آخر وكانت أهم الاشاعات التي تنقلت في ذلك الحين هي عين ما كان يذيعه راديو ألمانيا باسم « اللورد هو . . هو . . » من دعايات مثبطة ومزيفة انطلت على العقول المغسولة .

تلك الامثلة وغيرها . . وغيرها . . أثبتت بأن العقل يمكن أن يغسل ، وأن ما « يغسل » الدماغ عوامل كثيرة منفردة أو مجتمعة هي :

الصدمات النفسية المفاجئة . . التهديد المستمر . . المواقف الشديدة المرعبة كالمعارك الدامية . . الارهاق العصبي المستمر كالسهر المتواصل أو النوم المتقطع ، أو الجوع والعطش أو الآلام الجسمية والنفسية التي لا هوادة لها . . ثم مفعول بعض الادوية الخاصة . كل هذه العوامل تحفز أو ترهق أو تخدر الخلايا الدماغية وتوصلها الى الحافة الحرجة بحيث يصعب عليها أن تحتفظ بما تعلمته ، ويتم غسل الدماغ .

الى هنا فقط واصطلاح « غسل الدماغ » يفي بالمعنى ويشبع الغرض العلمي بدقة اذ أنه يدل على عملية « تطهير أو طرد » لعادات وأفكار وميول اكتسبها عقل الانسان في وقت مضى . . ولكن . . لكن العملية كما هي في واقعنا ليست مجرد تطهير أو طرد عادات بل تتبعها عملية أخرى لا تقل خطورة وأهمية عن سابقتها ألا وهي ادخال أو « غرس » عادات وأفكار أخرى جديدة في ذلك العقل « المغسول » . وهي عملية شبه ايحائية تتسلط على العقل الذي أصبح نظيفا « ناصعا » وحساسا ـ بل لقمة سائغة لحشوه بأية فكرة أو دعاية أو عقيدة ، وهناك يتجلى عجز اصطلاح « غسل الدماغ » عن وصف ما يجري بالحقيقة . . وهنا ندرك أيضا بأن اصطلاحات « الاقناع الخفي » أو « المذهبة » أو « التحويل الفكري » هي أشمل وأدق علميا ، والاقناع وغرس العقائد لايمكن أن يتم بدون غسل الدماغ أولا . . كما أن غسله وحده لا يحقق المطلوب ما لم يتبعه

تحويل فكري . .

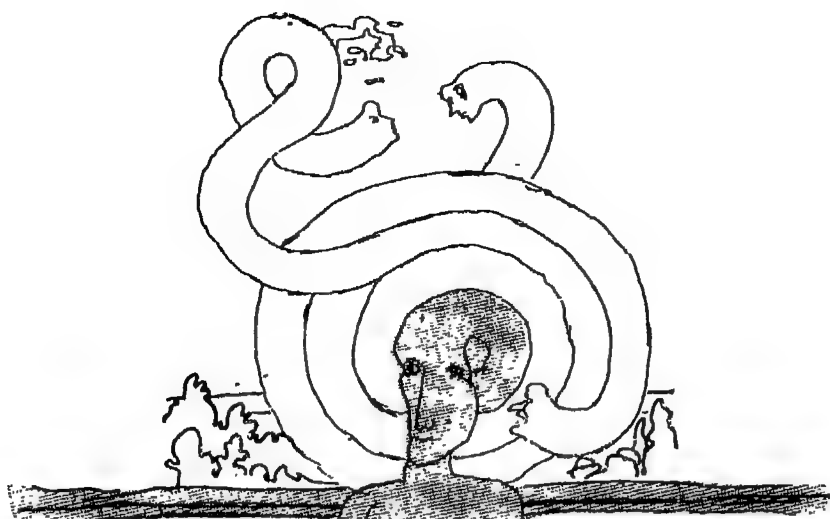
ومنذ أول المجتمعات البشرية اكتشف الانسان بان عملية التحويل الفكري يمكن أن تتورط بطريقة ما . . وكانت الطريقة القديمة حدسيـة أو عن طريق الصدفة ، وأصبحت الطريقة الحديثة ـ بعد أن دخل علم النفس في المرحلة التجريبية ـ مبنية على نظريات علمية ومخططة . .

والاقناع القديم . . .

هو « غسل الدماغ » وغرس أفكار جديدة فيه أو الاحتفاظ المستمر بما وصل اليه دون تخطيط أو ادراك لاسسه العلمية ، وقد قلنا بأن الانسان منذ أن وجد وسط « جماعة » كان يتعرض بين الحين والآخر الى عمليات « غسل وتحويل » دماغي ، فالرجل البدائي الذي يدخل حلبة الرقص وينشد الاناشيد ويصرخ ويرقص على دقات الطبول هو في الحقيقة في « أتون » التهيـج العصبي الذي يوصله الى حالة « الغسل » حيث يكون أكثر تقبلا واطاعة واستسلاما لتعاليم قبيلته أو رئيسه الديني أو « الشامان » . . أوالوثن الذي يوحي له بقوة سحرية خارقة . .

والصورة الحديثة لما يجري في الثقافة البدائية هي حلقات « الزار » ومثيلاتها التي نعرفها في بلادنا العربية . ففي قمة الاحتفال ، ينتهي التهييج العصبي بحالة « شبه اغمائية » تجعل من العقل البسيط شريطا حساسا يلتقط الايحاءات « بفوائد » ملموسة كشفاء من مرض بسيط أو من عرض هستيري سـابق . الخ .

وتلجأ بعض الطوائف الدينية الى لم أعضائها وربطهم عن طريق الاحتفالات والطقوس المتكررة والتي تتخللها الاثارة الحسية أيضا . ففي ولاية « كارولينا الشمالية » طائفة تستعمل « الافاعي » في احتفالاتها ، وتناول الأفعى باليد ثم وضعها على الجبهة والرقبة والأكتاف تثير في المنتمي شتى الانفعالات التي « تغسل دماغه » وتجعله متهيئا دوما للتمذهب والايمان . . والايغال فيه . فالجماعة . . والاناشيد . . والرقص الجماعي . . والموسيقى . . والبخور . . وايقاع الطبول . . والافاعي . . كلها امثلة على كيفية « غرس العقائد » بطريقة حدسية عفوية . .



ويجب أن نذكر بأن « غسل الدماغ » العفوي و « الاقناع » غير المتعمد يجري وقوعه الى يومنا هذا ، وأذكر على سبيل المثال ما يجري احيانا في قاعات المحاكم حيث يصادف ان يتهم شخص ما بجريمة ما وتكون الادلة ضده قوية ، وكل دليل يمكن ان يكون مثبتا للجريمة او ان يفند باحتمال ضعيف جدا . . ويصادف أيضا ان يكون المتهم بسيطا او محدود الذكاء . . وتكون فترة احتجازه واستجوابه وتكرار التحقيق واجراءات الامن والشرطة ورهبة المحكمة . . عوامل متراكمة تؤدي الى « غسل دماغه » ثم الى تقبله الايحاء والاتهام بحيث ينهار فجأة ويعترف بأشياء لم يقم بها حقيقة ولكنه « يعتقد » بصحتها او لا ينفيها بعد ما تعرض له ـ دون قصد ـ من غسل دماغ واقناع ! . . وذهب ضحية ذلك ابرياء شنقوا ولم يستحقوا الشنق .

الاقناع والتحويل الحديث . . .

. . لايختلف عما سبقه الا بكونه أصبح علميا او مقصودا تستخدمه مختلف الهيئات . . والفئات . . والحكومات . . والشعوب . . لتحقيق غرض ما . . وابسط الادلة على ذلك هي حرب الدعايات التي برزت في الحرب العالمية الثانية وبرع فيها (جوبلز) في المانيا . . فجعل من الاوهام حقائق انطلت على عقول

الملايين في انحاء العالم واصبح غسل الدماغ شبه حرب فكرية دعائية ، واقتضى ان تبتكر وسائل مضادة للتحويل الفكري ولزيادة مناعة الافراد ضد دعايات الآخرين . .

وفي مجرى حياتنا اليومية في هذا القرن العشرين امثلة اخرى عديدة « ومبسطة » لغسل الدماغ و « تحويل الافكار ». . منها ما تسلكه الشركات والمجلات التجارية عن طريق الصحف او السينما او التلفزيون ، من وسائل الدعاية والاقناع باهمية منتجاتها وفائدتها سواء اكان ذلك طعاما أو ادوات للزينة او للتنظيف او اغاني او افلاما او سيارات . . وتستخدم المؤسسات والشركات في عملية « التحويل » هذه حيل الالوان وتأثيرها والاخراج المسرحي في التلفاز والسينما . . والموسيقى التصويرية . . والاصوات والاساليب الكلامية المغرية . . وكل هذه الحوافز تؤثر في الجهاز العصبي للانسان وقد تنجح في تحويل ميوله او تبديلها .

و « حيل الاقناع » تلك كانت جارية على قدم وساق في العصور المظلمة والتي تلتها بصورة حدسية او « غريزية » ، فالدجالون من « الاطباء المتجولين » كانوا « يحولون » افكار البسطاء الى معتقدات بفوائد عقاقيرهم وعطورهم !! . .

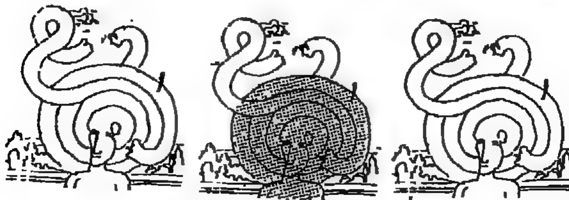
واذا كان ما ذكرناه هو « تحويل فكري » مدبر ومخطط . فان حوادث اخرى من غسل الدماغ تقع بصورة « روتينية » ولو استعنا بالخيال قليلا . . لامكننا ان نتصور رجل الغاب او الانسان البدائي قد انتقل الى احدى مدن الغرب . . ولبس « البنطلون » الضيق . . ودخل احد المراقص المتناثرة هنا وهناك . . فان من الهين عليه جدا ان « ينسجم » مع الصخب والالوان الصارخة والاضواء الخلابة . . بل يسهل عليه ايضا ان يشارك في رقصة « الجاز » والروك اند ـ رول » و « التويست »، وما تلك الرقصات الا طبعة حديثة منقحة لنسخة قديمة ، فقرع الطبول ، وضرب « الصاج » ، وارتعاش الجسم وتلويه ، مع الخمرة والدخان . . هي اشبه « بغسل الدماغ » البدائي الذي يجعل عشرات الناس تحت تأثير سحري واحد يسيطر على تلك الحلبة .



في ميدان العلاج النفسي :

يجري « غسل الدماغ » مع المريض نفسيا بغرض « تحويل نفسي » مستمر ، ولكنه يرمي الى شفائه وليس الى « إستغلال » عقله . وكان ذلك ايام الحروب عندما يصاب رجال المعركة بـ « صدمة القنبلة » ويصبحون في حالة من اضطراب عصبي هستيري حاد كالشلل الوقتي او فقدان الذاكرة او العمى الخ . . فيقوم الطبيب بعملية سريعة وناجحة للعلاج النفسي وهي « رد الفعل المعاكس » او التطهير السريع ، وذلك بحقن المصاب بمادة معينة تهدىء من التهيج واضطراب خلايا دماغه . . وعندئذ حينما يكون المريض بين النوم واليقظة يعاد على ذاكرته ما جرى له من حوادث في المعركة ذاتها . . فيستعيد ذكرياتها و « يعيشها » مرة اخرى بمخاوفها ورعبها وتوترها ، ويكون سرد الحادثة المؤلمة بمثابة « غسل دماغ » من التجارب القاسية ، وينتج عنه شفاء سريع ومرض .

ويتهم الاطباء النفسانيون من الذين لا يؤمنون بمدارس التحليل النفسي واللاشعور ونظرياته يتهمون زملاء هم من المحللين النفسانيين بان ما يقومون به من علاج نفسي انما هو « غسل دماغ » و « تحويل افكار » يجري بين المحلل ومريضه . فالمريض يضع ثقته في طبيبه . . وطبيبه يستدرجه الى حالة التطهير - أي سرد ذكرياته . . وبين حين وآخر يؤكد الطبيب لمريضه نقاطا خاصة في اعترافاته أو يدفعه في اتجاه معين هو اتجاه مدرسته التي ينتمي اليها المحلل . . والنتيجة هي أن « يتحول » المريض الى ما يريده الطبيب ، وهو المطلوب في العلاج النفسي ! . والحقيقة أن هذا التفسير التهكمي لا ينتقص شيئا من قيمة التحليل النفسي وأهميته ، كما أن له ردودا مقنعة ليس هنا مجال بحثها ، واذا شئنا التعميم على هذا القياس لقلنا بأن كل شد وجذب بين عقلين بشريين يتضمن شيئا من محاولة لغسل الدماغ وتحويله . .



أضواء على العلاج النفسي

قال المفكر (ترودو) إن العلاج النفسي يشفي المريض « أحيانا » ، ويخفف عنه « غالبا » ، ويريحه « دوما » . وهو تعريف موجز وبليغ وشامل لحقيقة ما يجرى في العلاج النفسي في عصرنا هذا .

واذا كان علم النفس المرضي والامراض العقلية علما حديثا قصير التاريخ ، فان الطب النفساني ممارسة بشرية عريقة جدا ترمي الى التخفيف عن الآلام ومعاناة الانسان من جراء شتى الظروف القاسية والملابسات المؤلمة ، وكان الطبيب البارع في العصور الغابرة يمارس شتى فروع الاختصاصات الطبية المعاصرة من جراحة وطب باطني ومن بينها العلاج بالطرق النفسانية أيضا . والقصص الطريفة التي تروى عن ابن سينا والرازي وغيرهما ، وعن أفانينهم النفسية لشفاء بعض الامراض النفسية ، ما تزال تصلح أمثلة مفيدة للطب النفساني الحديث ، وما نود أن نؤكد عليه هو أن محاولة الانسان للتخفيف والترويح عن الازمات النفسية لاخيه الانسان ، ما هي بالحقيقة الا « معالجات نفسية » بالمفهوم الحديث . ونصائح الاصدقاء ومواساة الاقارب والايحاءات وتشجيعات رجال الدين وعقلاء الجماعة ، هي أمثلة قديمة وحديثة ومبسطة للعلاج النفسي .

العربي العدد ١٥٤ سبتمبر ـ أيلول ١٩٧١ م .

ولم يصبح العلاج النفسي فنا خاصا مستقلا بذاته تمارسه جماعة من الاطباء والمتخصصين الا في أواخر القرن التاسع عشر ، وذلك عندما برز علم النفس وانسلخ عن أمه « الفلسفة » دون رضاها ليشق له طريقا آخر مستهديا بالعلوم الطبيعية الاخرى ومبتكرا لنفسه الابحاث والنظريات .

لا علاج بغير نظرية :

وطبيعي أن العلاج - أي علاج - يجب أن يستند على طبيعة الاسباب ، والعلاج النفسي القديم يختلف عن العلاج الحديث في نظرته الى مسببات الاضطراب النفسي والى كيفية الازالة أو تعطيل تلك المسببات ، لذلك نجد البون الشاسع بين العلاج النفسي الحديث والعلاج البدائي القديم ، كان الانسان البدائي يعتقد أن المرض النفسي ينتج عن « حلول » أرواح شريرة فيه ، أو عن اصابته بمفعول « لعنة » سلطها عليه أعداؤه أو أحد أفراد القبيلة المجاورة لقبيلته ، واقتضى « المنطق » حينذاك أن يكون العلاج « بطرد » الروح الشريرة وإبطال اللعنة السحرية ، ويتولى كاهن الجماعة أو الطبيب الساحر أو « الشامان » تلك المهمة ، ويلجأ الى استخدام الوسائل البدائية العديدة لشفاء المريض ، كتقديم القرابين والرقص الشعائري واحتساء العقاقير ومنقوع الاعشاب الطبية الغريبة ، وما تزال آثار تلك الوسائل الخرافية موجودة الى يومنا هذا في مجتمعات بدائية متفرقة من المعمورة ، وكذلك بين الطبقات الجاهلة من المجتمعات والدول النامية .

ويطول المقال لو تتبعنا كل وسيلة علاجية نفسية قديمة وأسسها الفلسفية والنظرية ، ولكننا نستنتج بأن العلاج النفسي يستند ويرتكز على أرضية من نظرية أو فكرة تفسر الطبيعة والسبب للمرض النفسي . والنظرية الخرافية تتبع علاجا خرافيا ، والنظرية الروحية تتبع علاجا روحيا . . وهكذا ، الى أن نكون قد وصلنا الى دور مدارس علم النفس المعاصرة .

ويحق للمفكر والمثقف أن يستغرب من اصطلاح « مدارس » علم النفس ، اذ سيدرك فورا أن وجود المدارس يعني بطبيعة الحال اختلافا في تفسير المرض النفسي وأسبابه ، وهذا ما يجب أن نعترف به شئنا أو أبينا . فالمرض النفسي لا

يزال معضلة فكرية وعلمية وفلسفية قيد البحث والتنقيب والجدل . الا أن شيئا واحدا يتفق عليه الجميع ، هو أن المرض النفسي يختلف كثيرا عن المرض العضوي ، وأنه يمتاز (بالقلق الدائم أو الاضطراب الفكري ، والشعور بعدم الاستقرار أو الامان ، وبسلوك لا يرضي الذات أو لا يرضي غيرها ، وأنه نتيجة أزمات وعقبات داخلية أو تجارب وأساليب غير موفقة في مواجهة الحياة أو الاشخاص أو الجماعات) . ولا شك أن الطفولة التعيسة والتربية الخاطئة في الحياة العامة والتوجيه الجنسي والفكري والعاطفي والعادات السيئة الاولية تحتل الجانب الكبير في التمهيد للوقوع في المشاكل والأزمات وعواصف المستقبل النفسية .

وتركز كل مدرسة نفسية على ناحية أو بضعة نواح من هذه المؤثرات وتهمل الاخرى ، أي أن لكل مدرسة نظرية خاصة في العقل والحياة والسلوك ، وعلاجها النفسي مستمد من تلك النظرة ، وستتبين الفوارق والخصائص لتلك المدارس من خلال استعراضنا لخطط علاجاتها النفسية .

طبيعة العلاج النفسي الحديث :

بتطور العلوم الانسانية والحياتية ، انتبه الانسان الى أن المرض النفسي يجب أن يكون موضع البحث والنهج العلمي ، وأن نتفقد مسبباته في الفرد أو الجماعة أو المحيط ـ كما بينا ـ وأنه يجب أن يعالج أيضا بأسلوب علمي وأخلاقي وإنساني يخلو من الدجل والخرافة ويرفض العنف والقسوة ، وهذه هي مزايا العلاجات النفسية الحديثة .

والخاصة المهمة الاخرى للعلاج النفسي هي استخدامه الكلمات والافعال والاتصال الروحي أو العاطفي الانساني في تحقيق عملية الشفاء دون اللجوء الى الادوية والعقاقير أو الى الادوات التكنولوجية والطبية الاخرى التي يعتمد عليها الطب الجسماني المعروف .

وقد كان مفهوم العلاج النفسي في الحضارات العريقة أنه : كل وسيلة نفسانية لعلاج الامراض سواء كانت عضوية أم نفسية ، كما يتجلى ذلك في تعاليم أبيوقراط وفي علاجات مشاهير الاطباء العرب . ثم أصبح مفهوم العلاج



النفسي مقتصرا على علاج الامراض النفسية بالوسائل النفسية فقط . وأخيرا ، ومنذ الخمسينيات من هذا القرن استرجع العلاج النفسي شيئا من مفهومه القديم ـ أي علاج شتى الامراض بالوسائل النفسية ـ ولا يعني هذا أنه يمكن معالجة السرطان أو التدرن الرئوي مثلا بالتحليل النفسي ! لكنه يعني أن النظرة الحديثة لعلم النفس تعتبر الانسان وحدة كاملة من نفس وجسم ، وأن كل اضطراب نفسي ناشيء عن أسباب نفسية خالصة أو عضوية يمكن أن يعالج نفسيا . فالمصاب بالتدرن أو السرطان قد يعاني بالاضافة الى آفته العضوية من الغم والقلق أو الميل الى الانتحار نتيجة ادراكه لحالته الخطيرة ، وعندئذ يلعب العلاج النفسي دوره بالطبع بالاضافة الى العلاج العضوي الخاص .

الا ان النسبة العظمى من العلاجات النفسية الحديثة تقتصر على مكافحة الامراض النفسية ، كما أن العلاج النفسي يقوم بدور خطير أيضا في معالجة الامراض النفسانية الجسمانية (السايكوسوماتية) كالربو والقرحة المعدية والضعف الجنسي وبعض الامراض الجلدية ، الخ . ومن كل ما تقدم ، يمكننا تعريف العلاج النفسي بأنه : « كل مجهود فردي أو جماعي يرمي الى تخفيف الآلام والمعاناة واضطرابات النفس التي تنتاب الحالة العقلية والعاطفية للانسان وتؤثر في سلوكه ، بالوسائل النفسية فقط » . ومن التعريف هذا ندرك أن هناك نوعين من العلاجات النفسية : ١ ـ العلاج النفسي الفردي والذي يجرى بين

المعالج الواحد والمريض الواحد .

٢ ـ والعلاج الجماعي وهو الذي يجري بين مجموعة من المرضى ومعالج واحد أو أكثر .

التحليل النفسي والعلاج النفسي :

من الضروري ايضاح الغموض ورفع الالتباس الدارج وهو اعتبار العلاج النفسي مرادفا للتحليل النفسي ، وهذا غير صحيح . فمنذ أن حل الانشقاق الكبير بين فرويد ويونج وأدلر الذين كانوا يعملون كفريق متميز عن بقية اتجاهات علم النفس ، تبعت ذلك مرحلة جديدة أخرى بظهور تلامذة علماء طوروا النظرية الفرويدية ـ بالتنقيب والتشذيب والاضافة ـ وهم الذين أطلق عليهم جماعة (الفرويديون الجدد) . كما دخلت العلوم الاجتماعية والانسانية الاخرى في ميدان علم النفس ، وظهر علم النفس الاجتماعي وعلم النفس الانثروبولوجي ، وتطورت السلوكية التقليدية لو اتسون تطورا جذريا ، وأصبحت العلاجات النفسية بطبيعة الحال عديدة ومتباينة ، وبقيت الطريقة الوحيدة للتحليل النفسي الكلاسيكي أو الفرويدي كما هي ودعيت بالعلاج النفسي للاعماق والتحليل النفسي فقط ، ودعيت الطرق الاخرى للتحليل النفسي التي لا تتناول أعماق الذات ولا تتوغل الى مدى بعيد من الماضي السحيق بالتحليل النفسي السطحي ، هذا بالاضافة الى عدة وسائل أخرى سنعددها باختصار ووضوح ، وعليه فالتحليل النفسي اذن واحد من مجموعة كبيرة لوسائل العلاج .

أنواع العلاجات النفسية :

١ ـ التحليل النفسي (الفرويدي) ، وهي الطريقة الشاقة الطويلة التي ابتكرها فرويد ، والتي تستغرق أشهرا طويلة وتتجاوز السنة الى ثلاث السنوات ، المريض يستلقي على اريكة في غرفة العلاج ويترك العنان لأفكاره . . ويجول في ماضيه وحاضره . . ويحكي أحلامه الليلية ، أما المحلل

فيمهد له الطريق بتوجيه وتعليق مبطن وتفسير غير مباشر ، الى أن يكتشف المريض تدريجيا القوى الخفية المكبوتة في عقله الباطن ويطلع على أسرار غرائزه الجامحة وميوله الغامضة وأسباب اتخاذه السلوك المعين ، ويعتقد الفرويديون أن مجرد اطلاع المريض على ما يدور في لا شعوره من عقد ونوازع مكبوته - وأغلبها جنسية الطابع - هي الخطوة الحاسمة نحو الشفاء ، التحليل النفسي من هذا النوع قليل الاستعمال ويقتصر على حالات خاصة منتخبة بما تتطلبه من جهد ووقت وتكاليف مادية .

٢ - التحليل النفسي اليونجي (نسبة للعلامة يونج) ، وتدعى **analytic-al therapy** وهو يشابه التحليل النفسي للاعماق باعتماده على تداعي الكلمات والافكار وتسلسلها الحر ويرمي الى الكشف عن عالم اللاشعور ، لكنه لا يعتبر أن الجنس هو مصدر الازمات والاضطرابات النفسية - كما يعتقد فرويد - بل كل ما في الحياة من مطالب روحية وحياتية ، وكذلك المطالب والغرائز السلالية للجنس البشري باجمعه وليس للفرد الواحد .

٣ - التحليل النفسي الأدلري (نسبة للعلامة أدلر) ، وهو لا يكترث باللاشعور والعقل الباطن ويؤمن بأن القوى المحركة للسلوك البشري تكمن في نزوعه الى تأكيد الذات وسطوتها وبروزها . والعلاج النفسي الادلري يحاول أن يكشف للمريض ميوله واتجاهاته التي يريد بها - من طرف خفي - أن يعوض عن شعوره بالنقص ، وبذا يدرك المريض سر سلوكه الحالي واضطرابه النفسي . وتحتل هذه الطريقة أهمية في الولايات المتحدة الامريكية .

٤ - العلاج النفسي السطحي (أو الخفيف) ، وهو أيُّ علاج نفسي لا يحاول نبش أعماق اللاشعور أو الاهتمام بكل دقائق النزعات الذاتية ، بل يتوخى الاستعراض العام والسريع لا برز العلامات والحوادث لحياة المريض العاطفية ومساعدته على استيعابها وحلها . وتشتمل العلاجات النفسية السطحية على وسائل مختلفة اقتطفها وانتخبها علماء النفس كاجتهاد خاص بهم أو بمدارسهم الفرعية ، وهي :

أ - العلاج النفسي الارشادي ، وهي الطريقة التقليدية باسداء النصائح والارشادات التي يراها الطبيب النفساني (أو الصديق أو الحكيم في الماضي) مناسبة للمريض بعد دراسته . وهي وسيلة محدودة الفعالية في أغلب

الاحيان ، لانه لايكفي أن تنصح المقامر مثلا بترك المقامرة لمضارها المعروفة ، بل أن تشرح له سر العوامل التي أدت به الى هذا المصير والى كيفية التخلص منها .

ب ـ العلاج النفسي القسري ، وهي أشبه ما تكون بسابقتها ، اذ يلجأ المعالج الى الارشاد والتوعية « الحازمة » للمريض مثلما ينصح الاب أبناءه أحيانا ، وللطريقة هذه مزاياها في حالات معينة فقط لدى الاشخاص الذين يحبون الخضوع والانقياد ، وفيما عدا ذلك فهي عقيمة كسابقتها .

ج ـ العلاج التوجيهي المرتكز على المريض وهي الطريقة التي ابتكرها النفساني الامريكي روجر . وتتلخص في أن يقوم المريض بالجزء الاكبر من الحديث والتعبير عن أفكاره ، بينما يقوم المعالج بدور الموجه الثانوي والتفسير الضروري جدا غير المباشر ، الى أن يتوصلا الى لب المعضلة ويكون المريض قد اكتسب معرفة أوسع لنفسه وبنفسه .

د ـ العلاج النفسي الايضاحي ، وهنا يزداد تدخل المعالج في التوجيه الى حدود الشرح والايضاح والتوعية ، وذلك من خلال الاعترافات وتصريحات المريض .

هـ ـ العلاج النفسي الايحائي ، ويزداد الدور الايجابي للمعالج فيتدخل في توجيه المريض بايحاء الافكار الصحيحة الى ذهنه .

و ـ العلاج النفسي الاسترخائي ، وهنا يهيأ للمريض جو من الهدوء التام والضوء الخافت والاسترخاء والانعزال عن العالم الخارجي بالاضافة الى الايحاء والارشاد . وتستخدم بعض المراكز النفسية الحمامات والامواج الكهربائية المنومة لتحقيق استرخاء أكثر مما لا يعد علاجا نفسيا صرفا .

ز ـ العلاج بالموسيقى ، وهي ليست طريقة خاصة ومستقلة بذاتها ، بل إنها وسيلة اضافية لتحقيق الاسترخاء والبعد عن العالم الخارجي وبذلك تكون الموسيقى مفتاحا الى تقبل الايحاء والتوصل الى الصفاء والهدوء .

٥ ـ العلاج باللعب ، وهي الطريقة المفضلة لعلاج الاطفال ، فالتفاهم مع الاطفال عملية عسيرة ، وقد يعجز الكلام عن الايصال وايضاح الافكار والانفعالات ، بل إن بعض الاطفال يحجمون عن الكلام أمام الطبيب النفساني . لذلك ابتكر بعض علماء النفس طريقة اللعب في غرف وقاعات



خاصة معدّة لهذا الغرض ، ويترك الطفل ليلعب بشتى الادوات مع نفسه أو بالاشتراك مع غيره من الاطفال المرضى ، ومن خلال ألعابه وسلوكه مع مواد اللعب أو الأطفال ، ومن نوعية اجاباته عن بعض الأسئلة التي يلقيها المعالج « عرضا » وبتعمد ، يمكن تكوين فكرة تقريبية عن أسباب مرضه وكيفية علاجه .

٦ ـ العلاج النفسي التمثيلي (السايكودراما) ، وهي الطريقة التي ابتكرها النفساني الايطالي (مورينو) ، وأصبحت الوسيلة المتبعة في مراكز متعددة للعلاج النفسي في العالم . فبدلا من الحديث والتحليل النفسي بالكلام ، يطلب من المريض أن يقوم بتمثيل أدوار معينة في تمثيليات آنية أو مهيأة سابقا بالاشتراك مع مرضى آخرين ، ومن خلال تقمصه الادوار « المريضة » والانفعالات والاحاديث المتبادلة تتجلى دفائن الافكار والمشاكل والاسباب الخفية . وقد يسند الدور المعاكس الى المريض لتحقيق هذه الغاية . فمثلا يقوم الزوج بدور الزوجة والعكس ، وعندئذ تصبح التمثيلية سجلا مثيرا لانفعالات غير متوقعة وتزيح الستار عن أسباب الخلاف الاسرى . . . الخ .

٧ ـ العلاج بالتنويم المغناطيسي ، اذ يستخدم التنويم المغناطيسي كوسيلة للحصول على الاعترافات وللكشف عن سرائر النفوس التي قد لا يجرؤ المريض على الافضاء بها وهو في كامل وعيه . كذلك يمكن ايحاء الأفكار الصحيحة اليه وهو نائم . .

٨ ـ الاستعانة بالعقاقير المهلوسة : يعجز المريض ويتوقف عقله عن التحرر من أسار الخجل والتردد أثناء التحليل النفسي ، وتنجح بعض العقاقير المصنوعة حديثا في فك عقدة لسانه والاسراع بالتصريح عن كوامن أفكاره ـ أي باثارة تداعي الافكار الحر مما يصبح أشبه بالهلوسة . وأشهر عقار استخدم لهذا الغرض هو (ل . سي . دي) D . C . L وهذه هي البداية تاريخ الـ ل . سي . دي ، الا أن تسربه الى السوق السوداء واستغلال المفسدين جعله في متناول الشباب المنحرفين والمجرمين وأصبح في عداد المخدرات الخطرة لما يحدثه في الجهاز العصبي من تحولات غريبة .

٩ ـ العلاج النفسي السلوكي ، وهي الوسيلة التي تختلف تماما عما ذكرناه آنفا من وسائل علاجية . وهي تعتمد على نظرية السلوكيين القدامى والمحدثين

والقائلة إن المرض النفسي مجرد « عادة خاطئة » تعلمها الانسان في ظروف حياته . فالعلاج السلوكي يحاول تبديل السلوك بازالة العادة السيئة أو التعويض عنها بتثبيطها وابطال مفعولها . ويستعين السلوكيون لتحقيق هذا التحويل بالايحاء المتكرر والمصحوب بالادوية أو الآلات الكهربائية لتنفير المريض من عاداته وتحويله عنها . ولذلك فان العلاج السلوكي لا يعد علاجا نفسيا خالصا لعدم اعتماده على الكلمات والاتصال العاطفي بين المعالج والمريض . ولم يثبت نجاحه في كل الحالات المرضية ، لكنه يبشر بالنجاح في علاج أمراض الادمان على المخدرات والانحرافات الجنسية .

١٠ ـ العلاج الوجودي ، وهي طريقة حديثة مستمدة من الفلسفة الوجودية . وهنا يكون دور المعالج الوجودي أكثر فعالية من كل الطرق السابقة ، اذ لا تكتفي بالتعليق على « الهامش » أثناء الجلسات العلاجية ، بل إن من واجبه أن « يتقمص » موقف المريض ليفهمه ويشاركه انفعالاته ويساعده على توسيع أفق رؤياه وتمديد أبعاد الانفعال الوجودي فيه . ولا غرابة في ذلك ، لان علم النفس الوجودي يقول بأن المرض النفسي هو (موقف انفعالي) تجاه الوجود والعدم ، وهو بالاحرى ليس مرضا مستقلا بل تحولا وجوديا .

١١ ـ العلاج الديني ، الشفاء الروحي الديني قديم جدا ، وعنصره لا ريب فيه . فالاعتراف والنصح والتوجيه والعطف والمحبة تدخل الأمن والطمأنينة على النفوس . ولذلك أدخلت بعض المستشفيات العقلية معابد أو مصليات داخل المستشفى لتيسير أداء الشعائر الدينية مصحوبة بالايحاء والتشجيع .

١٢ ـ العلاج النفسي الجماعي : في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، ولتجمع أعداد غفيرة من المرضى النفسيين من المحاربين أو المدنيين ، فكر بعض علماء النفس في جمع أكثر من مريض في محل واحد لتطبيق مهام العلاجات النفسية الانفة الذكر : من ايحاء واسترخاء وارشاد ورياضة . ثم أصبح العلاج الجماعي فنا خاصا وأسلوبا متميزا لعلاج أمراض نفسية متعددة . ويجتمع من ٧ الى ١٢ مريضا في قاعة ، ويشاركهم الجلسة الطبيب المعالج وبعض مساعديه . ويفتتح حديثا في موضوع ما ويطلب من المجتمعين ابداء آرائهم وتعليقاتهم . وتلتحم المناقشات . . ولا يبدي المعالج نشاطا مباشرا الا في ادارة دفة النقاش عند الضرورة للحث على الاستمرار أو لا بداء تعليقات مثيرة ومفيدة

وتطوعية ، المريض وسط تلك الجماعة يرتبط بعلاقات انسانية جديدة ، ويدخل في رحلة استكشاف لذاته ولغيره بالاحتكاك الفكري والعاطفي عند تكرر الجلسات ، وبهذه الطريقة تبدلت المواقف والأفكار والسلوك لدى المدمنين والمجرمين والمقامرين والمنحرفين جنسيا ، واستعادوا ثقتهم بالذات أو بغيرهم أو بالمجتمع . . وتحقق شعورهم بالانتماء وبالمسئولية .

الصفات المشتركة للعلاجات النفسية :

من كل ما استعرضنا من وسائل علاجية ، نستطيع أن نجمع صفات مشتركة واتجاهات متجانسة بينها ، نعدها فيما يلي :

١ ـ أن العلاج النفسي هو عملية اعادة تربية وتطوير عاطفي للمريض . .

٢ ـ أو اعادة تثقيف . . .

٣ ـ أو اعادة توعية وتبصير بالحقائق الحياتية وكيفية مجابهتها بالاسلوب الصحيح . .

٤ ـ أو اعادة الثقة المفقودة بالنفس أو تقويتها واسترجاعها . . .

٥ ـ رفع المعنويات وترويض المخاوف وتهدئة القلق .

٦ ـ ادخال الشعور بالطمأنينة والامن والراحة النفسية .

٧ ـ جعل الانسان عضوا مفيدا وعنصرا حيويا في أسرته أو محل عمله أو مجتمعه ، بعد أن كان يشعر بالنشاز والغربة ، أو يتصرف بالانحراف ويسلك طريق الاجرام .

٨ ـ ان الثقة المتبادلة ، وايمان المريض بمعالجه وبسلامة الوسيلة العلاجية وعامل العاطفة يلعب دوره في انجاح العلاج ، أو على العكس ، في فشله اذا لم تتوافر تلك الشروط .

إن العلاج النفسي محاولة جادة لا نقاذ الانسان من آلامه ومشاكله ، وتيسير حياة مستساغة له ولغيره من الناس . . وأن هذه الوسائل المختلفة تقتطف وتنتقي من كل مدرسة نفسية ما تعتقده مفيدا لمرضاها ، وقد تتبدل وتتطور هذه الوسائل في المستقبل وقد تصبح نسيا منسيا اذا ما ظهرت وسائل أحدث وأنفذ مفعولا . والانسانية تتطلع دوما الى الاحسن والأنفع .

الذاكرة وفن الحفظ

عرفوا الذاكرة بأنها « قابلية الانسان للاحتفاظ بالتجربة والمعرفة واستدعائها وتذكرها عند اللزوم » .

وقالوا انه : « لايتصور تقدم حضاري ولاتعلم دون الذاكرة . . . »

وقد يبدو هذا الحكم مبالغا فيه ، ولكنه الحقيقة بذاتها ، ولنبدأ منذ الساعة الاولى التي يدخل فيها الطفل مدرسته الابتدائية ليتعلم الالف والباء . . والواحد والاثنين . . وكيفية كتابتها . . فانه دون قابلية الدماغ للتسجيل والخزن والتذكر سيضطر ذلك المخلوق الى عادة تعلمها في اليوم الثاني والثالث . . وحتى آخر العمر . . دون أن يتقدم قيد أنملة في دروب المعرفة بسبب نسيان ماتعلمه . ويترتب على ذلك أن كل خبرة عملية وكل حركة يكتسبها بالتجربة تفلت منه حال غيابها وعبورها في الزمن ، اذ بغير الذاكرة لن يتمكن من اعادتها وتذكرها والاستفادة منها في تجربة جديدة ، ونستطيع أن نتصور كيف أن الانسان بغير ذاكرته لن يتمكن من تصحيح أغلاطه السابقة في التعلم ، بل كيف تبهره كل تجربة أو معرفة جديدة ، وكيف تبدو له الاشياء غريبة جديدة مهما تكرر ظهورها وعودتها . وبما أن التعلم لايبدأ في المدرسة بل منذ اللحظة الاولى التي يستقبل بها المرء حياته بعد ولادته من رحم أمه فانه بالاحرى لن

ـ العربي ـ العدد ١٨٥ ابريل ـ نيسان ١٩٧٤ م

يستطيع تمييز الاصوات والاشياء . . ولن يحفظ أسارير وجوه أمه وأبيه وإخوته وتقاطيعها .

الذاكرة اذن هي السر وراء كل تقدم حضاري ، ولولاها لبقي الانسان مخلوقا يتنافس مع القردة في لغات الغابات وأحراش البسيطة ، ولظلت الحياة دون قراءة وكتابة ، وبغير علوم أو اختراعات أو اكتشافات .

ذاكرة البشر متفاوتة :

لايوجد انسان بغير ذاكرة مهما كانت درجة ذكائه متدنية ، ولكن القابليات العقلية متنوعة فهناك أناس يمتلكون قابلية ذهنية على حل المسائل الرياضية ، وآخرون على الكلام والحفظ ، وآخرون على الانجاز والمهارة العملية اليدوية . . . وهكذا . والذاكرة كاحدى الملكات العقلية لاتوجد بصورة متساوية لدى كل الافراد،وقد يمتلك فرد ذاكرة قوية جدا ، ولكنه لايمتلك قابلية رياضية أو مهارة عملية مناسبة بل قد يكون معدل ذكائه العام اعتياديا أو هابطا أو ممتازا . وفي علم النفس أمثلة على مجموعة من الافراد أطلق عليهم اصطلاح « الاغبياء ـ الموهوبون » ، وهم من ذوي الذكاء الهابط ولكنهم يمتازون بذاكرة قوية في احدى القابليات الحسية . فمثلا هناك طفل عمره ٩ سنوات كان يحفظ مواعيد سير القطارات بين مدينتي لندن ومدينة برايتون لمدة أربع سنوات متتالية . وهناك طفل عمره ٧ سنوات كان يحفظ أسماء جميع أزهار حديقتهم باللغة اللاتينية . . . وآخر عمره ١١ سنة كان يستطيع العزف على البيانو بعد سماعه أي لحن مباشرة .

عباقرة الذاكرة :

ويمتلك بعض الافراد ذاكرة حادة تثير الدهشة والاستغراب أحيانا لانها تفوق ماتعودنا عليه وماهو مألوف عن الذاكرة . « والحكاية » التي تروي عن أبي العلاء المعري خير مثال على حدة الذاكرة . فقد طرق بابه شخص فارسي غريب لايعرف العربية يسأله عن أحد سكان بلدته (معرة النعمان) اذ لم يجده في



داره . . . ولما كان الرجل الغريب راحلا فقد هون عليه أبو العلاء مشكلته بأن طلب منه أن يقول له مايريد قوله لـذلك الغـائب . وكانت رسـالة الغـريب بالفارسية وحفظها أبو العلاء لتوه ، ثم أعاد تلاوتها على الشخص الثاني بعد قدومه دون أن يفقه معناها،وكانت رسالة ذات أخبار سيئة . ! واذا نحن بررنا قوة ذاكرة أبي العلاء بكونه أعمى ومرهف الحس ، فـان أشخاصا آخرين لم يكونوا عميانا مثله ، كما سنرى .

وفي العصور التي سبقت ظهور الطباعة والصحافة والتسجيلات على الاسطوانات والشرائط ، استغل ذوو الفطنة من أصحاب الذاكرة القوية قابليتهم في أغراض متعددة ، منها التاريخية ، ومنها العملية ، أو الفنية أو التجارية وظهرت أسماء لامعة لاصحاب الذاكرة المدهشة .

فالمدعو (وليم وودفول) (١٧٤٦ - ١٨٠٣م) كان يستطيع اعادة ذكر كل ما سمعه من حديث بصورة دقيقة ومباشرة ، ولذلك عمل مخبرا صحفيا ينقل وقائع جلسات البرلمان البريطاني الى صحيفة (مورننج كرونيكل) اللندنية دون تدوينها أو فقدان شيء منها ! . . .

أما (وليم بوتيل) (١٨٧٥ - ١٩٥٦م) ، فقد كسب عيشه من ذاكرته الخلابة اذ عمل في مسرح (بالاس) في لندن يوميا طيلة اثنى عشر شهرا في احدى السنوات وكان يظهر على المسرح ليجيب عن الاسئلة المتعددة التي يطرحها عليه الجمهور حول حوادث وشخصيات شهيرة كان يحفظ تفاصيلها بدقة . وقد تجول في أرجاء الامبراطورية البريطانية والولايات المتحدة الامريكية عدة سنوات ممارسا تلك المهنة ! . .

أما ابن الحائك الفقير (ريتشارد بوسن) (١٧٥٩ - ١٨٠٨م) ، فقد برع في حفظ المقطوعات الادبية بنصها ، والمسائل الرياضية ، واللغة الاغريقية . وتدرج في الدراسة الجامعية - برعاية المحسنين الى أن تخرج من جامعة كمبردج ، وأصبح أستاذا للغة الاغريقية في جامعة كمبردج ذاتها ، ثم مديرا لمكتبة المعهد البريطاني .

كل هذه الامثلة الواقعية تدل على أن قوة الذاكرة - كماذكرنا - توجد في أشخاص ذوي مستويات ذكاء متفاوتة دون اشتراط اصابتهم بعاهات حسية أخرى أو بالغباء الموجود لدى « الاغبياء الموهوبين » الذين تطرقنا الى ذكرهم .

الشعور ، واللاشعور ، والذاكرة :

عندما يفكر الانسان ويجادل ويمارس التجربة والدراسة أو الانفعال فان كل مايدور أثناء ذلك من عمليات عقلية يتم بوعي منه ، أي أنه يشعر وينتبه ويركز على الموضوع الدائر آنئذ . والوعي الآني في لحظة ماقد يصبح بعد لحظات

أو دقائق في عداد النسيان ، لان الانسان ينتقل الى حالة شعور ووعي آخر ، أي أن دائرة الوعي تنتقل الى موضوع آخر . ولكن ما يتعلمه الانسان لاينعدم بالحقيقة بل يحفظ في مكان ما من دماغه ليرجع ثانية الى مستوى الوعي والشعور عندما « يتذكر » الانسان ماتعلمه سابقا .

هذا « النسيان الوقتي أو الخزن في مستويات خارج نطاق الوعي . . بل هذه الذكريات القديمة التي تقفز فجأة أمام الشعور بعد أن تصورنا اختفاءها كلها هي التي دفعت (سيجموند فرويد) الى تقديم نظرية « اللاشعور » في البناء العقلي للانسان . وهي النظرية التي أصبحت حقيقة لامكان لدحضها اذ أن كثيراً من ظاهر الحياة العقلية للانسان يؤيدها . وبما أن دائرة الوعي والشعور محصورة بوقت زمني قصير ، وبما أن اللاشعور هو خزان كبير لكل مايطرحه الوعي خارج حدوده ، فان اللاشعور يجب أن يكون كبيرا ضخما تقبع فيه الذكريات المؤلمة أو العنيفة أو المرعبة أو التي لاحاجة لها ، كما تكمن فيه أيضا الاهواء والميول التي سيطر عليها العقل الواعي وطردها من الشعور لوقاحتها أو رذيلتها أو مخالفتها للعرف والتقاليد والمثل .

ومن دلائل وجود ذاكرة مخزونة تحت الشعور أننا كثيرا ما نريد تذكر كلمة أو حادثة ونشعر بحماس أنها قريبة منا وأنها على طرف اللسان ، ثم اذا بها تظهر فعلا وتدخل في نطاق الوعي . .

ان فرويد وعلماء الفلسجة العصبية الحديثة لم يستطيعوا الى الآن ان يحددوا ماهية اللاشعور وموقعه وآلياته . .

التفسير الفسلجي ـ العصبي للذاكرة :

منذ أن عرف الدماغ على أنه مركز العقل والشعور والسلوك ، حاول علم الفسلجة والجهاز والعصبي معرفة المواقع والأسرار للعمليات الذهنية المختلفة للانسان ، وما توصل اليه كثير ولكنه لايزال يعتبر نزرا يسيرا بالنسبة الى المجهول الذي لم يكتشف بعد .

ويستمد العلماء معرفتهم عن العقل البشري من مختلف الامراض التي تصيب الدماغ الانساني . . وأثناء العمليات الجراحية ، ومن الاختبارات

والتجارب الفسلجية التي يمكن إجراؤها دون أذى على الانسان ، ويستند القسم الأخر من المعلومات التجريبية المطبقة على أدمغة الحيوانات (كالفئران والارانب والقطط والكلاب والقردة) علس أساس أن التركيب الحياتي (البيولوجي) للكائنات الحية يشترك في أصول متشابهة نوعا ما .

وأسرار الذاكرة وماتتضمنه من تسجيل للحوادث والمعرفة وخزنها وربطها ثم اعادتها بعد حقبة من زمن قد تستغرق عشرات السنين هي من جملة ما حاول علم فسلجة الجهاز العصبي دراسته . وكان اختراع الآلة الحاسبة والالكترونية (الكمبيوتر) نموذجا مبسطا أو « ساذجا » لذاكرة العقل البشري ، وعن طريق الحاسبة حاول بعض العلماء تفسير ذاكرة الانسان بأنها عملية تسجيل تتم في أحد مواقع المخ وتنقل الى موقع آخر تخزن فيه ثم تسحب في كل مرة يأتيها ايعاز بذلك .

أما علم الفسلجة العصبية فقد توصل الى « مبادىء » أولية عن عملية الذاكرة نوجزها بما يلي : أن الفص الصدغي للمخ يستلم المعلومات الاولى عن طريق الحواس المعروفة ليبدأ عملية التسجيل والنقل . وقد وجد جراح الجملة العصبية الشهير (بنفيلد) أنه عندما قام بتحفيز جزء من ذلك الفص بالتيار الكهربائي على أحد مرضاه أثناء عملية جراحية ثم سأل المريض عن مشاعره في تلك اللحظة قال المريض انه « تذكر » حوادث قديمة جدا تعود الى الطفولة وبصورة بخلابة واضحة ، كذلك وجد نفس الجراح أنه عندما قام باستئصال جزء من الفص الصدغي الذي يحتوي على الجزء المسمى ب (قرن آمون) فقد ذلك المريض ذاكرته الحديثة بينما احتفظ بكل ذكرياته القديمة حتى ساعة العملية الجراحية ، وعندما انتقل المريض بعد العملية الى دار جديدة بدأ ينسى موقع داره والطريق المؤدي اليها والمعلومات والاسماء الجديدة التي ترد اليه . وهناك تجارب كثيرة أخرى تشير الى أن منطقة الفص الصدغي واتصالاته الاخرى مع بقية أجزاء المخ هي الجزء الاول المسؤول عن الذاكرة الحديثة وتسجيلها .

وتحوم شكوك أخرى حول عملية التسجيل وكيف أنها تتم داخل خلايا الدماغ وبواسطة جزئيات لمواد كيماوية حيوية هي حوامض نووية بروتينية وأن تلك المعلومات والذكريات تنقل على تلك الجزئيات الى خلايا أخرى في موقع آخر من الدماغ ربما توجد في مناطق سفلية وعميقة منه تتعلق بالجهاز الشبكي ومما

يعزز هذه النظرية أن مادة (البيوروما يسين) والتي تخمد نشاط جزئية الحامض النووي تؤدي الى خفوت الذاكرة الحديثة وفقدانها كما أن الجزئيات الحاملة لمعلومات حديثة اذا ما أخذت وحقنت بجسم حيوان آخر من نفس النوعية يكتسب المعلومات الجديدة مباشرة .

ان بساطة هذه الاكتشافات بالنسبة الى عظمة ماهو قائم فعلا ومجهول يوضح بجلاء الحبكة الآلهية والاتقان الكيمياوي والعصبي لعمل الدماغ .

والنسيان هو مرض الذاكرة ، وهو العملية المعاكسة للتذكر . ولكن كيف يتم النسيان ؟ . . يحاول علم النفس تفسير عملية النسيان بالعوامل التالية :

١ ـ النسيان النفسي : وهو تطبيق للمثل القائل « في النسيان الشفاء . . » أي أن الانسان ينسى أو يتناسى » مايؤلمه أو يزعجه أو يربك حياته وهو نسيان ذو هدف وباعث ، أي أنه وسيلة للهرب والتجاهل وهومايؤكدعليه علم النفس في حوادث الكبت وفقد الذاكرة الهستيري في الحروب والصدمات المفاجئة عندما ينسى المحارب اسمه أو رقمه وموطنه بصورة وقتية . ويتضح هنا دور التحليل والعلاج النفسي في استرجاع الذاكرة التي حاول الفرد دفنها الى الابد . .

٢ ـ النسيان بالتشويش والتداخل فالتداخل الحاصل من الورود والدخول لمعلومات جديدة أخرى تحل محل الذكريات التي سبقتها أو تضعفها يؤدي الى النسيان ، وهكذا . ويتم التداخل بطريقتين :

أ ـ عندما تؤثر المعلومات الجديدة على سابقتها وتضعفها وهو مايسمى « بالكف المتأخر » .

ب ـ أو على العكس ، أي عندما تؤثر المعلومات القديمة الراسخة على الجديدة وتضعف من ثباتها ، وهو مايسمى بالكف المتقدم » .

٣ ـ النسيان من قلة الاستعمال : أي أن كل معرفة تتآكل وتذوي على مر الزمن من قلة الاستعمال . وهي نظرية غير قوية لاننا كثيرا مانتذكر حوادث قديمة جدا بكل دقائقها .

٤ ـ النسيان الناتج عن أمراض الدماغ العضوية ، فكل مرض يؤدي الى موت بعض خلايا الدماغ أو ضمور قشرته الستجابية ينشأ عنه خلل أو اضطراب في الذاكرة ومن هذه الامراض التهابات الدماغ المختلفة ، زهري الجهاز العصبي ، تصلب الشرايين الدماغية ، أورام الدماغ ، الصدمات والارتجاج الدماغي الشديد والشيخوخة المبكرة وخرف كورساكوف .

هل من فن للتذكر ؟

ان أهمية الذاكرة والتذكر دفعت علماء النفس ورجال الفكر والتربية والتعليم الى دراستها ومعرفة العوامل والمؤثرات في تقويتها واستغلالها الى أقصى امكاناتها وكانت بعض تلك الدراسات تخمينية أو استنتاجية ، وظهرت في العصور الوسطى الكتب التي تصف الذاكرة ومناطقها في الدماغ وخرائطها ! . ولم تكن تلك الاراء عملية تجريبية . الا أن علم النفس بنهجه العلمي الحديث وبعد دخوله في مرحلة التجربة العلمية للظواهر العقلية ، خرج بنتائج ومبادىء أساسية عن الذاكرة وفن الحفظ والتذكر ، نعدد منها مايهم القارىء الكريم في حياته الفكرية والعلمية :

١ ـ التصميم على الحفظ : فاذا فرضنا أنك تعرفت الى شخص اسمه (زيدون) فان التصميم على حفظ اسمه يتم بأن تكرر اسمه خلال تعرفك عليه : « كيف حالك ياسيد (زيدون) ؟ .. وما رأيك ياسيد (زيدون) ؟ .... الخ . وبذلك تتفادى نسيان اسمه ، أو عدم الاكتراث به لافتراضك أنك لن تقابله مرة أخرى طيلة حياتك . وهذه النية على الحفظ تفيد في تذكرك لكثير من الاشياء والاسماء التي تسمعها أو تقرأها أو تلاحظها في حياتك اليومية .

٢ ـ تعزيز الذاكرة بالتصور والخيال : فاسم (زيدون) يرسخ أكثر فيما لو حاولت تصور تقاطيع وجهه وخصائصه البارزة .

٣ ـ الانتباه الى الاهم والاعم : ففي قاعة المحاضرات ، يستحسن أن ينتبه الطالب الى الموضوع الاساسي للمحاضرة،وأن لايتيه في تدوين التفاصيل بالتدوين بين حين وآخر أفضل من التدوين المستمر التفصيلي . ان الطلبة

الخاملين يدونون أحيانا أكثر التفاصيل في محاضراتهم ثم يتخبطون فيها .

٤ ـ ربط الحدث أو التجربة بما تتعلق به من صلات منطقية تساعد على حفظه كما يقول العلامة النفساني (وليم جيمس) فالترابط يساعد على الحفظ والتذكر ولنذكر مثلا بسيطا . ان رقم التلفون ١٤٩١٦٢٥ صعب الحفظ لعدم تناسقه . ولكن أحدهم حفظه بسهولة بأن وجد لنفسه العلاقة الرياضية التالية : قال إن رقم التلفون هو بالحقيقة ١٢٣٤٥ اذا رفعنا كل رقم الى حاصل تربيعه . أي أن مربع ١ = ١ ومربع ٢= ٤ ومربع ٣=٩ ومربع ٤=١٦ ومربع ٥=٢٥ .

وهذا الترابط اصطناعي يبتكره الشخص لنفسه ، مثلما يتذكر البعض الآخر تسلسل أبيات قصيدة طويلة ، أو تسلسل خطاب يريد أن يلقيه فيجد لنفسه طريقة الى ذلك

٥ ـ ان الوزن أو اللحن أو السجع يساعد على الحفظ والتذكر ، كما هو مألوف في الجمل والكلمات وأغاني الاعلانات في المذياع والتلفاز ، ولهذه الطريقة حدودها وقيودها .

٦ ـ توزيع عملية التعلم على مراحل ، وتجنب الحشو والكظ أو مايدعى أحيانا (الدرخ) يعني أن قراءة الموضوع دفعة واحدة في يوم واحد قبل موعد الامتحان لاتضاهي القوة والرسوخ ووضوح المادة فيما لوتعلمها الشخص بدفعات مرتبة متقطعة تسمح له بالاعادة والتفكير والربط مع الخبرات السابقة .

٧ ـ المذاكرة والاعادة : حاول كلما سنحت الفرصة أن تعيد الحفظ واعادة حفظ ما قرأته ، لان المذاكرة العقلية تساعد على الخزن والرسوخ .

٨ ـ الراحة بعد المذاكرة فالاستراحة بعد القراءات والدراسات المهمة (أو النوم مباشرة بعدها اذا حل موعده) هي أفضل من الاستمرار والانتقال الى موضوع جديد آخر،فالراحة بعد حفظ مادة تساعد على ابقاء حدة المعلومات الجديدة ووضوحها ، بينما يخف تسجيلها ويضعف رسوخها بتشويش المعلومات التي تعقبها مباشرة ، ويزيد التداخل والازاحة اذا كانت المعلومات أو الدراسات بحاجة الى تركيز وجهد ذهني متواصل وهكذا يجب أن يتم توزيع جدول الدروس اليومي في المدارس ، أي أنه لا ضير من وضع حصة التاريخ بعد ساعة الرياضيات ، ثم بعد مادة الاداب ثم الرياضة البدنية،أما أن تتراكم حصص الرياضيات فالفيزياء فالكيمياء واحدة بعد الاخرى دون وجود فترات

راحة مناسبة فان ذلك يؤدي الى زعزعة قوة بعض تلك المواضيع ورسوخها .

٩ ـ يستحسن قبل قراءة فصل أو قطعة طويلة من كتاب أن نلقي نظرة شمولية عامة عليها ، واذا وجد لها ملخص فاقرأه قبل الشروع في قراءة الفصل بدقة .



الجشتلت ، هى أحدث وآخر مدرسة متكاملة في علم النفس الحديث ، ظهرت في عام ١٩١٢ . وتعد تعاليمها من أطرف ما جاء به علم النفس ، اذ امتـدت الى ميادين فكـرية لم تقتـرب منها المـدارس الأخرى ، ولم تجـرؤ على تفسيرها . ويعدها بعض النقاد مدرسة فريدة وأصيلة لنشوئها مستقلة عن أية تعاليم وفلسفات سابقة لها .

والجشتلت كلمة ألمانية حديثة ليس لها مرادف دقيق في اللغات الأخرى ، ولكنها تعطى معنى « الشكـل » ، أو « الهيئة » ، أو « الترتيب والانتظام » . وحيث أن محور النظرية قائم على فلسفة الشكل فقد دعيت بالجشتلت .

ـ العربي ـ العدد ١٦٥ اغسطي ـ آب ١٩٧٢ م

واضعو الجشتلت

في جامعة برلين ، التقى ثلاثة شبان في قسم الأبحاث النفسية . ثم شاءت الصدف أن يلتقوا مرة أخرى قرب مدينة فرانكفورت بعد أن تخرجوا وتوزعوا في محلات عملهم ، وهناك امتزجت أفكارهم الأولية مع تجاربهم العملية فخرجوا بنظرية (الجشتلت) ، وكانوا :

ماكس فرت هيمر (١٨٨٠-١٩٤٣) .

وكرت كوفكا (١٨٨٦-١٩٤١) .

وفلف جنج كولر (١٨٨٧-) .

الذى شغل منصب استاذ علم النفس في جامعة سوارثمور في الولايات المتحدة الأمريكية لغاية عام ١٩٥٥ .

وكان أول ما جمعهم عدم قناعتهم وتشككهم في صحة ادعاء النظريات النفسية المعاصرة ، وأبرزها : النظرية السلوكية لواتسون ، والنظرية التركيبية لفند ، والنظرية الترابطية لبافلوف وثورندايك . وقد انتبه فرسان الجشتلت الثلاثة الى أن هذه النظريات لن تستطيع تفسير التفكير والادراك والأحاسيس بصورة دقيقة ، وأن ما تجمع لديهم من التجارب والحقائق منذ أيام دراستهم حتى ذلك الوقت يكفى للادلاء بآرائهم ، وسرعان ما لقيت تلك الآراء مؤيدين لها في أرجاء كثيرة من العالم الغربي ، بل سرعان ما أصبحت مدرسة راسخة ، وما لبث واضعوها ان انتقلوا من ألمانيا الى الولايات المتحدة الأمريكية تباعا ، ومنذ عام ١٩٣٠ .

وقد حفلت تلك العقود القصيرة بأبحاث متتالية وتجارب مستمرة على الانسان والحيوان .

ففي عام ١٩٣٣ ، كتب كوفكا عن الجشتلت في الولايات المتحدة . .

وفي عام ١٩٢٥ ، أصدر كولر كتابه القيم عن « عقلية القرود » .

وفي عام ١٩٢٩ ، ظهر كتاب « الجشتلت » بقلم كولر .

وفي عام ١٩٣٠ ، سافر كولر الى الولايات المتحدة ولقي هناك أتباعا كثيرين متحمسين .

وفي عام ١٩٣٥ ، أنجز كوفكا كتابه عن « أسس سيكولوجية

الجشتلت » .

وهكذا استقر البُحاث الثلاثة في أمريكا محتلين مناصب علمية مرموقة

ما هو الجشتلت ؟

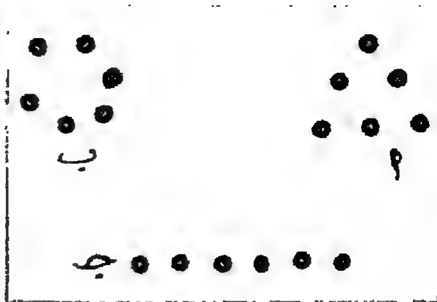
قال مؤسسو الجشتلت ، ان ما يحير علماء اليوم هو انشغالهم بالجزيئيات وتقيدهم بالسير من الأسفل الى الأعلى ، ان هنالك طرقا مختصرة وسريعة أمام الباحث اذا ما التفت الى الكل قبل الجزء ، واذا بدأ من القمة وانحدر تدريجيا الى القاعدة .

ولست بصدد ذكر تفاصيل نظرية الجشتلت ولكن من الأيسر ان نتتبع تلك الفكرة في عقول مؤسسيها لنصل الى جوهر النظرية . فلو نظرنا الى الرسم (١) وتأملناه . . . ، لرأينا شكلا مثلثا أ ، أو دائريا ب ، أو خطا مستقيما ج . فكان أول ما تلتقطه عقولنا من الأحاسيس هو النموذج أو « الشكل » الذى ينتج من مجموع الأجزاء . وأجزاء هذه الأشكال هي النقاط السود .

وبهذه النقاط يمكننا تركيب أشكال أخرى يدركها الانسان قبل الالتفات الى أجزائها . أو بالأحرى ان الكل الذى ندركه لا يساوى مجموع الوحدات الحسية بالضبط ، بل يزيد عليها في الشكل والتنظيم ـ وهو ما يدعى بالجشتلت .

وعندما تجتمع المحسوسات في شكل أو هيئة ، فانها تحتل المرتبة الأولى من ادراكنا الحسي وتبقى الأشياء والأحاسيس الأخرى في المؤخرة كخلفية .

الجشتلت الذى ندركه . وفي الرسم (٢) نستطيع أن نرى صورة كأس بيضاء ذات خلفية سوداء ، ولكننا لو تحكمنا في ادراكنا للصورة وتريثنا هنيهة ، لاختفت الكأس فجأة وظهر وجهان أسودان متقابلان ذوا خلفية بيضاء . فالفكر اذن لا يتقبل المحسوسات كلها على السواء ، بل يتقبل جشتلتا أو شكلا واحدا ذا خلفية ثانوية ، ولا يمكن ادراك الشكلين معا (أى الكأس والوجهين) وفي آن واحد . ومعرفة الطفل الرضيع لأمه قبل كل شيء ناتجة عن ادراكه لوجه أمه الحنون القريب منه غالب الأحيان من بين خلفية كبيرة ومتنوعة حواليه (كالغرفة وأثاثها والناس الآخرين من أفراد العائلة) .



شكل (١)


شكل (٢)

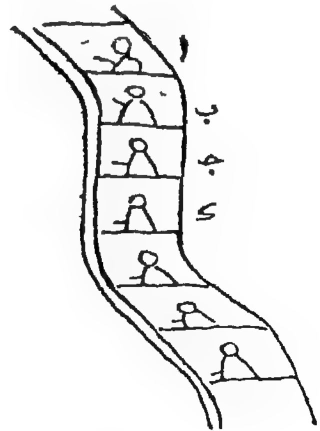
وأجزاء الأحاسيس هذه عندما تتجمع وتتلاحق زمنيا ، يمكن ان تنتج شعورا بالحركة . والفلم السينمائي الذى نراه كحركة مستديمة ، ما هو الا مجموعة من صور ثابتة ساكنة لا حركة فيها ابدا ـ الرسم (٣) . فمكنة العرض السينمائي تدير (الفلم) بسرعة معينة ، وعندئذ تظهر الصورة أعلى الشاشة (وهي في الحقيقة صورة ساكنة) . . ثم ، وبعد جزء من الثانية ، تتبعها الصورة ب ، وهي أيضا ساكنة . . . ولكنها تختلف عن الأولى قليلا جدا . ثم تليها الصور ج و د . وهكذا تتلاحق مئات وآلاف من الصور الساكنة . الا أن قصر المسافة الزمنية جعلها تختلط بشكل جشتلت حركى . وقد استفاد العلماء من هذه الظاهرة في ابتكار ألاعيب الأطفال ذات الصور المتحركة منذ أوائل القرن التاسع عشر ، وكانت تدعى بظاهرة الصورة المتحركة ، وهي نواة (الأفلام) السنمائية الحالية وكثير من الظواهر الاعلانية الحركية في العصر الحاضر . أما فرت هيمْر فقد دعاها بظاهرة الوهم الحركى . ورواد الجشتلت هم الذين فسروها علميا واثبتوا أن الصور الساكنة اجتمعت وانتجت كلا يزيد على مجموعها ـ وهو الحركة .

وقد قضى كولر أعواما وهو يراقب ويختبر تفكير أعلى مراتب القردة (الشمبانزى) وذلك بأن يجابهها بمعضلات فكرية ويدرس كيفية توصلها الى حلها والخروج منها . وخرج كولر باستنتاج يقول ان تفكير القرود العليا وإدراكها ـ وكذا الانسان ـ يعتمد على رؤية المعضلة ككل وكموقف عام ـ أي كجشتلت ـ وانه عندما ينجح في حل المسألة التي تتحداه ، فإنما يفعل ذلك

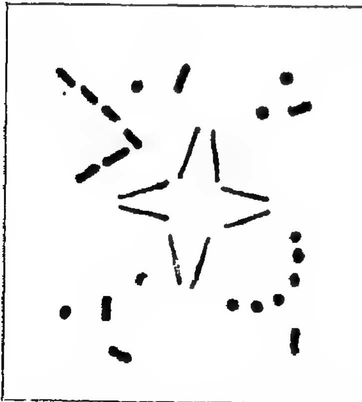
بالادراك أو « الاستبصار » **Insight** ، وليس بالتجربة والخطأ كما يقول ثورن دَيك .

أما فرت هيمر ، فقد ألف كتابا عن « التفكير الخلاق » بعد ان قابل ودرس عباقرة المفكرين آنئذ ، ومن بينهم اينشتاين على الخصوص ، وكيفية توصله الى النظرية النسبية . وبين كيف أن تفكيرهم كان خلاقا ومنتجا باتباعهم الطريقة الشاملة (الجشتلتية) في التفكير الذكى الذى يتوصل لفهم المسائل المعقدة .

وفي حياتنا العامة أمثلة متعددة على ان مفردات الحس تصل الى الدماغ وقد امتزجت ككل ، وكأنها تجمعت وتفاعلت وهي في طريقها الى جهازنا العصبى المركزى . والجشتلت أو الشكل الذى نحس به الأشياء لا يتغير حتى لو تغيرت الأجزاء . فالفستان من الزي الفلاني (أى الشكل) يمكن أن يصنع من الحرير أو القطن أو الصوف ، ولكنه يبدو للناظر كل مرة بالزي ذاته على المرأة ذاتها . كما أن اللحن الواحد تشخصه الاذن حتى لو كان يعزف بسلالم موسيقية عالية أو واطئة ، لأن مجموع الأصوات وترتيبها يفوق الأجزاء الصوتية (النوتات) التي يتألف منها ، فتنتج لحنا ذا وقع خاص على الأذن البشرية . هذه القوى الجامعة الديناميكية في المحسوسات هى الجشتلت .



شكل (٣)



شكل (٤)

عوامل الجشتلت

ترى ما سر اجتماع الأجزاء وامتزاجها لتصل الى الادراك بشكل وهيئة وخلفية ؟ ، وما آلية إدراك شكل معين وطردٍ أو اهمال أشكال اخرى من الشعور ؟ لقد وجد رواد الجشتلت بضعة عوامل تقرر إدراك الانسان للاحداث كجشتلت وذلك بعد سلسلة من التجارب ، وهذه العوامل هي :

١ ـ عامل القرب (أى قرب الأجزاء من بعضها) ، ٢ ـ التشابه ، ٣ ـ الاستمرارية ، ٤ ـ الميل الى الانغلاق والتكامل ، ٥ ـ الالفة ، ٦ ـ التهيؤ والاستعداد ، ٧ ـ التقوية والتعزيز .

والرسم المرفق (٤) يبين بوضوح تلك العوامل . فنحن ندرك النقاط الصغيرة والأشكال التي تكونها نظرا لتشابهها وتقاربها مجموعات ، وكذا بالنسبة للخطوط العريضة المتقطعة ، كما اننا ندرك نموذج النجمة على الرغم من انها بضعة خطوط غير متصلة ، ولكن قوة الجشتلت تغلقها وتكمل الفراغات فيما بينها ، أما الألفة فأبسط مثال عليها أنك اذا كنت وسط زحام من الناس في «صالة» مسرح أو حديقة أو موقف حافلة ، فإن الوجه المألوف لديك هو الذى يبرز ويقتحم إحساسك ، وبذلك تميز بسرعة وجوه الأصدقاء والأحباب من بين خلفية ضخمة من الوجوه الغريبة . وتأثير التهيؤ والاستعداد يتضح عندما تذهب الى السوق باحثا عن قبعة أو عن ربطة عنق ، فان التهيؤ لالتقاط الرباط وشرائه يجعلك لا ترى في واجهات المخازن (الفترينات) الا الأربطة أو القبعات ، أما البضائع الأخرى فيهملها العقل وتغدو خلفية ثانوية .

ونظرية الجشتلت لم تقتصر على تلك التجارب ـ وغيرها كثير ـ ، بل حاولت التطبيق وتعميم ذلك على ظواهر نفسية وحياتية اخرى .

تطبيقات « الجشتلت » العملية

سرعان ما انتشرت تعاليم الجشتلت الى ميادين علم النفس الاخرى ، والى التربية والفلسفة ، وأصبحت دليلا مشروعا لتفسير ظواهر حياتية غامضة :

١ - ففي ميدان التفكير والتعليم نجد أن كل ما نجربه ونراه ونحسه يتوقف على طبيعة الأجزاء ومحلها من المجموع الكلى للشكل والهيئة ، فالذاكرة والحفظ والنسيان تعتمد على الجشتلت الذى يحس به عقلنا تلك الأشياء ، أى أن الانسان يدرك الحياة والعالم والناس كظاهرة متكاملة . . كصورة . . كأشياء تبرز من خلفية أو تتراجع الى الخلفية .

٢ - وفي التربية والتعليم : بما أن « الجشتلت » هو أول ما يصل الادراك وهو الذى يطغى على الأجزاء ، فان الطريقة المثلى والسريعة لتعليم الأطفال مبادىء القراءة الأولية واللغات هى ان نبدأ بالكل قبل الجزء . نعلمهم الكلمة والجملة كما هي ثم نرجع بعد زمن الى الأجزاء والتفاصيل (أى الحروف) . وهذه هى الطريقة الحديثة في تعليم اللغات وحتى المواضيع المعقدة من علوم النفس والاجتماع مثلا ، اذ يمكن البدء بالفصول الصعبة الكاملة ثم نعود الى المبادىء في الخطوات التى تليها - أى من القمة الى القاعدة .

٣ - في تفسير بعض الأمراض النفسية : وقد كشفت نظرية الجشتلت النقاب عن نظرة الانسان الى المجتمع والحياة ككل ، كميدان تتجمع فيه شتى الأحاسيس والوحدات والتجارب ومن هذا الكل (الجشتلت) يستطيع العقل أن يدرك علاقة الأشياء بعضها ببعض ، وأن يجرد التجربة الواحدة من خلفيتها ، وأن يسلك تجاهها السلوك المطلوب ولا يحدث في أمراض القلق والحصر أن تضطرب قابلية التجريد تلك ولكنها لا تتبدل ، أما في مرض الفصام العقلي (الشيزوفرينيا) ، فنجد ان قابلية التجريد تقف وتتجمد . ولذلك يتصف مريض الفصام بجمود التفكير .

وبالانعزال . والانعزال هو وسيلة المريض العقلي لتفادي الاصطدام بالازمات والمعضلات و « الاشكال » الصعبة الوافدة الى عقله من العالم الخارجي (الناس والمجتمع) .

٤ - في ابتكار مقاييس الذكاء والتفكير المجرد : وبما ان الجشتلت يفسر قابلية الانسان للتجريد والاستنباط واكتشاف العلائق بين الموجودات ، فان بالامكان ابتكار معايير فكرية نختبر بها المشتبه بهم لنسجل درجة قابليتهم للتصرف والاستنباط وعلى الربط والتجريد . ومن الأمراض المؤثرة على التفكير المجرد الفصام ، والآفات الدماغية التي تخرب جزءا من خلايا الدماغ وانسجته

فتحدد من قابلياته السابقة . وقد استفاد علماء النفس من هذه النظرة الجشتلتية فصمموا عدة اختبارات للذكاء . واول من بدأها فرت هيمر نفسه . ثم طورها بندر ، وكولد شتاين ، ويطلق عليها الآن اختبارات (بندر جشتلت) ، واختبارات كولدشتاين (وهي خمسة) .

٥ ـ في علم الاجتماع : واستفاد علماء النفس الاجتماعي من الجشتلت أيضا في تفسير بعض السلوك الاجتماعي للانسان ، حتى ان كرت ليفن خرج بنظرية (المجال النفسي) والتي تقول ان الانسان والاشياء موجودات وسط ميدان أو « مجال » أشبه ما يكون بالمجال المغناطيسي المحيط بالمادة المغناطيسية ، وان المحيط والمجتمع يمثلان هذا المجال ، وان الفرد يتأثر بالمجال ويؤثر فيه أيضا ، وكأنهما القطبان المغناطيسيان . فسلوك الانسان يتكيف بالنسبة للمجال الاجتماعي الذي يعيش فيه ، ويؤثر فيه بدوره . كما ان المعالج النفسي اذا ما استطاع تحوير المجال ، فانه يكون قد توصل الى تحوير سلوك الفرد .

٦ ـ واستفاد العلماء الفلاسفة في الفن والجمال من الجشتلت أيضا لتفسير المعاني الجمالية في الابداع الفني والموجودات الطبيعية . فقد يحس الانسان ان الوجه الفلانى أو اللوحة المعينة جميلة جذابة دون ان يكون في تقاطيعها أو تفاصيلها ما يبرر جمالها . والحقيقة ان الشعور بالجمال هو شعور بالجشتلت . وبالأحرى ان المجموع الكلى لأجزاء اللوحة أو القطعة الموسيقية أو المنحوتة أو وجه المرأة قد بعث شعورا بالجمال ، ومن هنا يتأتى جمال الانتاج الفنى .

لم تبرز مدرسة الجشتلت دون سوابق فلسفية وفكرية . وقد أفلح بعض النقاد في اكتشاف ملامح منها منذ عهد أرسطو ، الا أن الملامح الأقوى بدت في القرن التاسع عشر . فقد أشار النفساني ايرنفيلز الى أن العقل لا يدرك الأشياء وحدها بل مع صفاتها أيضا . فعندما نرى المربع المؤلف من أربعة أضلاع متساوية وأربع زوايا قائمة فاننا ندرك أيضا صفة « التربيع » فيه ، وكذلك نحس « تكوير » الشيء في الكرة ، وخشونة القماش ، و « لزوجة » السائل المعين . . الخ . ودعا هذه الصفات الحسية بـ« صفة الجشتلت » .

وتذكرنا نظرية الجشتلت أيضا بفلسفة « الظاهراتية » التى بدأها الفيلسوف هوسرل ، والتي تركز على ان ما يدركه العقل هو عين الظاهرة التى يراها ، وان الحقيقة هي حقيقة الظاهرة ولا غيرها . وبذلك أيدت الظاهراتية الجشتلت والتى تركز أيضا على فكرة الظاهرة الحسية وديناميتها .

ومن الطريف للقارىء العربي أن يعرف ان المؤرخ والمفكر الاجتماعي ابن خلدون أدرك الجشتلت بصورة غير مباشرة تدل على الحس العلمى المرهف لديه ، اذ أشار الى أن الأصل في الادراك هو المحسوسات ، وأن جميع الحيوانات من الناطق وغير الناطق مشتركة في هذا الادراك الحسي ، ولكن الانسان يتميز عنها بادراك « الكليات » وهي مجردة من المحسوسات .

قلنا ان الجشتلت نظرية ظهرت كرفض وتحد للتعاليم النفسية في بعض المدارس السائدة في أوائل القرن العشرين . ومن المفيد أن نذكر محور كل منها لتتبين الفوارق الجوهرية بينها .

فالمدرسة التركيبية ، ورائدها الشهير وندت ، اعتبرت الشعور والادراك مركبا من مجموعة الأجزاء والوحدات الحسية . أى ان المجموع يساوى الأجزاء بالضبط ولا يزيد عليها . وقالت ان الوعي والشعور يمكن دراسته بتحليله الى جزيئاته وذراته تلك . ولذلك دعيت أيضا بالنظرية الذرية أو العنصرية لتركيزها على العناصر والأجزاء . وقالت أيضا بأن وسيلتنا الأساسية لدراسة الشعور هو التفكير الباطنى ـ أى بالتأمل و « الاستبطان » .

أما النظرية السلوكية لواتسن ، فقد تنكرت لوسيلة الاستبطان كأداة للبحث ، وقالت ان ما نحسه وندرسه يجب أن يكون موضوعيا . والموضوعية هى الحقيقة وحدها ولا دور للفكر والعقل فيها . وما نحسه ونشعر نحن به لا قيمة له بقدر ما للسلوك الظاهرى الذى يجرى خارجنا وتحت سمعنا وأبصارنا .

أما المدرسة الترابطية فقد سادت الفكر الأوروبي لمدة قرنين (الثامن والتاسع عشر) وخاصة في انجلتره موطنها الأولى . ومن روادها : هيوم ولوك وهوبز وبيركلي . وتعتمد الترابطية على فكرة ان الخبرة والتجربة وترابطها هى

محور التفكير والتعلم والمعرفة . ثم تطورت النظرية وأصبحت مدرسة نفسية خاصة على أيدي ثورندايك وبافلوف وسكينر الذين أجروا تجارب على الحيوانات واستنتجوا بأن الادراك والتعليم يتم عن طريق ربط تجربة أولية سابقة باخرى جديدة ، وان المحاولة والخطأ هي العامل الحيوي في « الترابط » هذا وليس البصيرة أو التفكير الذكي المجرد . وقالوا ان تسلسل الأفكار أو بالأحرى « تداعي المعاني » الحر هو المثال الواقعي على الترابط في الاحساس والتفكير والادراك .

وقد رأينا مسبقا كيف خالفت الجشتلت تلك المدارس ولكنها لم تنف أهمية الاستبطان في الأبحاث النفسية بل أكدت عليه .

رأينا كيف أن الجشتلت أصبحت مدرسة راسخة متميزة عن غيرها من النظريات ، وانها الثانية ـ بعد التركيبية ـ التي أنشئت لها مختبرات نفسية عملية لاثبات أبحاثها .

وقد توزعت تعاليم الجشتلت تدريجيا الى ميادين شتى ، وتبنتها نظريات اخرى ، كما تبدلت النظرة اليها كمدرسة بعد منتصف القرن العشرين ، بل انها لم تعد مدرسة مستقلة لها أتباع ومريدون ، وما نصادفه اليوم من أفكار للجشتلت فموزع بين مواضيع الاجتماع والفلسفة والفن والتربية وعلم النفس . واليها يرجع الفضل في احراز التقدم في تلك الميادين الفكرية . ولا ريب ان مدرسة الجشتلت أضافت للفكر الانساني وعلم النفس شيئا جديدا وجديرا بالاهتمام ، على الرغم من انها لم تفند أو تدحض المدارس الاخرى التي تطورت وتجددت أيضا وأصبحت ذات أسس راسخة وذخيرة علمية كبيرة .



الفهرس

السلوك الإنساني

الحقيقة والخيال !

١٥ يوليـو ١٩٨٦م

● الفصل الثالث ●

● الفصل الرابع ●

صدر من

كتاب العربي

● الكتاب الأول ●

الحرية .... د . أحمد زكي ● يناير ٨٤ ●

● الكتاب الثاني ●

العلم .. في حياة الانسان .... د . عبدالحليم منتصر ● ابريل ٨٤ ●

● الكتاب الثالث ●

المجلات الثقافية والتحديات المعاصرة .. د . عبدالله العمر

د . محمد جابر الانصاري

د . فؤاد زكريا

كامل زهيري ● يوليو ٨٤ ●

● الكتاب الرابع ●

مراجعات حول: العروبة والاسلام وأوروبا د . محمود السمرة ● اكتوبر ٨٤ ●

● الكتاب الخامس ●

العربي ومسيرة ربع قرن مع :

الحياة .. والناس .. والوحدة ، في دول

الخليج العربي. (مجموعة كتاب) ● نوفمبر ٨٤ ●

● الكتاب السادس ●

طبائع البشر . دراسات نفسية واجتماعية — د . فاخر عاقل — ● يناير ٨٥ ●

● الكتاب السابع ●

حوار . . لا مواجهة

دراسات حول الاسلام والعصر . . . . — د . أحمد كمال أبو المجد — ● ابريل ٨٥ ●

● الكتاب الثامن ●

آراء ودراسات في : الفكر القومي . . . . . — ساطع الحصرى

د . أحمد زكى

د . محمد أحمد خلف الله

د . عبدالعزيز الدورى

د . عبدالله عبدالدائم

د . عبدالرحمن البزاز

(وآخرون) — ● يوليو ٨٥ ●

● الكتاب التاسع ●

أضواء على لغتنا السمحة . . . . — محمد خليفة التونسي — ● اكتوبر ٨٥ ●



قديم الشعر وجديده

د. محمد مندور — د. أنيس المقدسي

د. زكي نجيب محمود — د. ابراهيم أنيس

د. عبدالعزيز المقالح — عبدالله زكريا الأنصاري

شوقي بغدادي — طلال سالم الحديثي

وآخرون

الكتاب الثالث عشر

١٥ اكتوبر ١٩٨٦

هذا الكتاب

النفس البشرية ذلك الصندوق المغلق الذي حاول العلماء سبر أغواره ، بعضهم أقترب من الحقيقة والبعض الآخر ابتعد عنها ، أما تفسير السلوك البشري فانه لاينبع فقط من التركيب البيولجي للانسان ولكنه أيضا خاضع للثقافة والبيئة التي يحياها الانسان . عن هذا الموضوع الشيق ـ النفس والسلوك ـ يصدر كتاب العربي الجديد الذي كتبه أحد الاختصاصيين العرب في مقالات قصيرة وممتعة في مجلة العربي ، وها نحن نجمعه في هذا الكتاب فائدة للقارىء ومتعة .

● الأسعار بالداخل ●

طبع في الكويت
مطبعة حكومة الكويت